مكتبة
مؤمن قريش

مقامات السالكين

تحرير وشرح

منازل السائرين للشيخ عبدالله الأنصاري

السيد عباس نورالدين

مركز بـاء للدراسات

بسم الله الرحمن الرحيم

الكتاب: مقامات السالكين

تحرير وشرح كتاب منازل السائرين للشيخ عبد الله الأنصاري

الكاتب: السيد عباس نورالدين

الناشر: بيت الكاتب

الطبعة: الأولى بيروت – 2009 م

مكتبة مؤمن قريش

moamenquraish.blogspot.com

www.baabooks.com

هاتف 01477233 - 03380119

جميع الحقوق محفوظة ©

مقامات السالكين

تحرير وشرح كتاب منازل السائرين

بقلم السيد عباس نورالدين

مركز باء للدراسات والنشر

بيروت - لبنان

قسم الدراسات
الأخلاقية والسلوكية

شكر وإهداء

الشكر كله والحمد الخالص له سبحانه الذي تجلى في بوارق لطفه التي صاحبت الكاتب منذ أن تعرف على هذا الكتاب الجليل، وفي الآذان الواعية للإخوة والأخوات الذين استمعوا لدورات متتالية إلى دروس شرحه، فاعطوا الكاتب القليل البضاعة ما يعجز عن وصفه، وفي الملاحظات القيمة والتصحيحات الدقيقة للعاملين في مركز باء للدراسات.

شكر إلى الجميع، الذين أعجز عن ذكر أسمائهم وهم المحتسبو الأجر عند الله تعالى.

لهم أهدي هذا العمل

السيد عباس نورالدين

مقدمة الناشر

إن كتاب منازل السائرين للشيخ الجليل أبي اسماعيل عبدالله الأنصاري وشرحه للشيخ عبد الرزاق القاساني، من أجلّ الكتب وأرفعها في السير والسلوك والعرفان العملي. وربما لا نبالغ إذا قلنا أنه لا يوجد له مثيل في هذا الفن الأعلى من حيث الترتيب والمنهجية والتفصيل والعمق والدقة. ولهذا كان مورد تأييد واعتماد أساتذة العرفان وتدريسهم.

وقد قام جانب فضيلة السيد عباس نورالدين بتحرير المتن الأصلي مبدلاً بعض العبارات الغامضة وشارحاً إياه مستفيداً مما تفضل به الشارح الكبير، ليكون بمتناول المهتمين من أهل التهذيب والرياضة.

وقد تمكن جناب السيد الفاضل من تقديم شرح جديد وبأسلوبه التوضيحي، ليغني عن أي شرح آخر ويكون هادياً بذاته لمن أراد أن يتعرف على جميع مراحل السير من بداياته إلى نهاياته.

يأمل بيت الكاتب بأن يكون هذا الكتاب خطوة مهمة على طريق بيان المعارف العملية للعرفان التوحيدي الخالص الذي أكد عليه الامام الخميني قدس سره. وقد نصح زوجة ابنه بقراءته في وصاياه العرفانية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أفمن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس﴾

تمهيد

الحمد لله الذي أودع في كل مخلوق فطرة الرجوع إليه، ولولاها لما سلك أحد طريقه. والصلاة والسلام على النور الأتم الأمجد الذي تنزل في مراتب الخلقية للأخذ بأيدي التائهين في لجج الضياع، وعلى آله الذين وفوا بالعهد ومضوا على الدرب مصابيح للسالكين ومعالم للمهتدين.

وبعد، فهذا كتاب في السير والسلوك جدير أن نمهد له بمقدمة حول هذا الفن الأعلى والعلم الأشرف الذي يترجم عن الله وصفاته، ويبين طريق التخلّق بأسمائه والتحقق بتجلياته، ويكشف القناع عن حقيقة طريقته الظاهرة في متون شريعته. هو علم لا غنى عنه للسالكين منهاج محجته، سواء عرفوه من لدن علمه سبحانه أو قرأوه في أسفار أوليائه؛ فهو السبيل إليه في مدلهمات الطرق وغياهب البعد.

فليعلم أن السير والسلوك ليس إلا الخروج من مطلق الاحتجاب والفرار من مراتب الظلمات إلى النور المطلق الذي أنار السموات والأرض، والقرب الأتم في مقام التدلي. وما على السالك في سيره من أسفل سافلين إلا استقبال هذا النور الذي يبدل وجوده الخلقي بالوجود الحقي ويجعل أخلاقه وصفاته صفات الحق وأخلاقه.

فبالنور الإلهي الساري في كل عوالم الوجود، من أعلى المراتب إلى أدناها، تتبدل الصفات الخلقية وتزول الرسوم الوهمية وتنقشع سحب الإمكان وتزول حجب الأهواء وقيود المكان. وما دام الانسان عن مطلق هذا النور محتجبا، فهو ليس بمسافر ولا إلى ربه راحل.

بداية السير تكون بانبعاث هذا النور في القلب كما ذكر لنا مولى الموحدين عليه السلام: "**إن الايمان يبدو كلمظة في القلب كلما ازدادت ازداد الايمان**". واللمظة هي نقطة النور. ومع كل زيادة في الإيمان والنور، يزداد حظ السالك من الوجود ويزول عنه شيء من القيود.

فإذا وفق لنيل المرتبة الأولى من النور، وتنورت نفسه به، فقد عبر المرحلة الأولى من الظلمات؛ وهي تختصر بثلاثة:ظلمة النفس، وظلمة القلب، وظلمة السوى. ويقابلها أنوار ثلاثة : نور العقل ونور الروح ونور الحق. فبالنور المنبعث من العقل تزول ظلمة النفس، وبالنور الساري من الروح يتنور القلب، وبنور الحق المتفرد تزول ظلمة السوائية والغيرية، وبعدها لا يبقى في الديار غير الحق ديار.

قال الله تعالى: **﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله﴾**. ويكشف الامام الصادق عليه السلام عن بعض مكنونات هذه الآية الشريفة فيقول: "**الظالم لنفسه يحوم حوم نفسه، والمقتصد يحوم حوم قلبه، والسابق بالخيرات يحوم حوم ربه**".

فمن حام حول نفسه، كان طالبا لحظوظها ومشتهياتها، وهي مشتهيات البدن وحواسه؛ ومن حام حوم قلبه كان طالبا للكمالات المعنوية بما هي كمالات للقلب؛ أما من حام حوم ربه فهو الذي لا يرى غير الله، ويعد العبودية له

أشرف المنازل وخدمته تعالى أعلى المراتب. وهو أهل الحقيقة.

على السالك أن يبدّل وجوده الخلقي إلى الوجود الحقي، فيبدل صفات الحدوث والإمكان بصفات القدم والوجوب. ومع كل مرتبة يعبرها يأخذ اسما مشتقا من النور حتى يصل إلى معدن النور: الهي هب لي كمال الانقطاع إليك وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك حتى تخرق أبصار القلوب حجب النور فتصل إلى معدن العظمة ..

إن كتاب الله هو النور بل النور المطلق، قال الله تعالى: فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا.

ولما كان القرآن بآياته يمثل درجات الجنة كلها، كما ورد في الحديث أنه "**يقال للمؤمن يوم القيامة حين الدخول إلى الجنة إقرأ وارق، فلا يكون في الجنة من الدرجات إلا بعدد آيات القرآن**"، فإن درجات النور هي مراتب الجنة ودرجاتها التي هي مجمع كمالات الوجود ومحل تجلي الحق. فالنور المطلق والجنة والقرآن حقيقة واحدة بعبارات ثلاث.

وإن أهل البيت هم النور، قال الله تعالى: ﴿في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه.. رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع﴾، بعد قوله تعالى: ﴿الله نور السموات والارض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور﴾..فهم مظاهر النور ومشكاة المصباح الذي وضع في بيوتهم.

ولهذا كان السير في درجات النور سيرا في مراتب نفوسهم الشريفة: ..وانفسكم في النفوس وارواحكم في الارواح.. (من الزيارة الجامعة).

ففي المرتبة الأولى حيث يكون الانسان أسير النفس الأمّارة فإنه بالمجاهدة

يستقبل النور وبرياضة التقوى ينبعث في قلبه ويضيء على نفسه، فينتقل إلى مرتبة النفس اللوامة. وإذا استجاب لملامة النفس، ازداد نورا وانتقل إلى الإلهام، وصارت نفسه ملهمة. ومن وفقه الله لمعرفة دواعي النفس الملهمة، وسار فيها انتقل بنفسه إلى الاطمئنان، وهناك تبدأ نفسه المطمئنة بمصاحبة القلب المنور بنور العقل في رحلة الترقي وتصبح منقادة له؛ لينتقل بعد مقام القلب والعقل إلى مقام السر حيث تغلب أحوال الحق أحوال النفس وشؤونها الخلقية، فيزداد نورا بالاستجابة لدواعي الحقيقة، ليستقبل بعدها نور الروح، وتأخذه جذبات الحق إلى ما خفي عن الخلق وما هو أخفى.

إن كل مرتبة من مراتب الانسان الحقية والنورية تكون في مرحلة الكمون والاستعداد، ما دام هذا الانسان أسير النفس تابعا لمشتهى البدن. وإنما تبدأ بالتفتح والفعلية بمجرد الخروج من سلطانها الأمّار بالسوء. فمن لم ينه النفس عن الهوى، فلن تكون له جنة المأوى، ولن تكتب له الحياة الحقيقية،أي لن يجعل الله له نورا.

إن نيل المراتب العالية من النور والتحقق بصفاتها وخصائصها في الوجود الانساني لن يتم إلا بتمامية نورها. فما لم تمتلئ النفس نورا لن تصل إلى الاطمئنان، وما لم يبلغ القلب حظه الأوفى من النور لن ينال مرتبة العقل، وهكذا..

إن الحديث عن النور بالإضافة إلى قربه من حقيقة الأمر، يعطي توضيحا مناسبا لرحلة السير والسلوك التي هي رحلة استقبال النور والاتساع بسعته. هذه الرحلة التي يتجلى فيها النور الإلهي المطلق في البداية بصورة نور خافت ضعيف يدعو إلى القيام لله والاستيقاظ من سنة الغفلة، ثم ما يلبث أن يزداد ومعه يزداد الوجود الانساني سعة ويقترب كل لحظة من صفات الحق وكمالاته.

فمن أراد الوصول إلى مقام العقل ما عليه سوى الاستمرار في استقبال أنواره التي تبدل وجوده النفسي شيئا فشيئا. ومع كل مجاهدة للنفس يزداد نور العقل في القلب ويرتقي في مراتب النفس التي تزداد بياضا حتى تبلغ من الطمأنينة مبلغا لا يبقى لها سلطان على صاحبها إلا بإمرة العقل وسلطانه. فقد صار الانسان في مقام العقل بعد تمامية نوره وخروجه من سلطان الوهم والهوى.

وإن ما بعثه على المجاهدة هو النور الإلهي المنبعث من العقل المنعكس من القلب على النفس. ولما كانت النفس حاضرة والانسان عالقاً في مقامها، ضيقت على النور الإلهي وقيدته في حدود العقل الضعيف. فمع كل تقدم على طريق المجاهدة يزداد نور العقل، ويتحرر العقل من قيوده.

واستقبال النفس لهذا النور وامتلاؤها به يعطي الحياة الكاملة للعقل فينتقل إلى مرحلة التحقق التام ليكون عقلا فعّالا، وذلك إذ تكللت المجاهدة بالطمأنينة، وتبدلت المقاومة إلى الاستقامة، امتلأت النفس نورا. وإذا أشرق نور الروح على العقل دعاه إلى الفناء فيه لشدته، وجذبه إليه بقوة جماله، ومن استجاب عَبَرَ النفس والسوى، حتى يصل من القرب ما لا تسعه الأوهام.

إن السالك ما دام في مقامات النفس فهو مسافر منها وإليها. ويكون مقصده نيل حظوظها وإن كانت حظوظا شريفة. فسفره ليس إلى الله.

وإذا صار في مقام القلب وأعجبته أحواله، فهو تائه في السوى وإن كان مجذوبا إلى الحق.

فالسفر الحقيقي يبدأ بالخروج من منزل القلب الذي هو منصة الانطلاق، والسير إلى الحق يكون بعبور مراتب الفناء، حتى يتحقق الفناء التام، ومن بعده البقاء بالحق، والتحقق باسمائه وصفاته.

إن نور الله الإطلاقي يتنزل من أعلى مراتب الانسان، مضيئا كل مرتبة فيما إذا استقر في أخيرة تلك المرتبة وهي النفس. وإنه ليزداد اتساعا في هذه المراتب، كلما ازداد سعة في المراتب النازلة. أو لنقل أن ازدياده فيها لدليل على اتساعه في المراتب العالية.

فالنور الأول هو نور مجاهدة النفس الأمارة، وهو نور المراتب العالية المقيد بالنفس الأمارة.

والنور الثاني هو نور النفس اللوامة، وهو نور المراتب العليا المقيد بالنفس اللوامة.

والنور الثالث هو نور النفس الملهمة، وهو نور المراتب العليا المقيد بالنفس الملهمة.

والنور الرابع هو نور النفس المطمئنة، وهو نور العقل المقيد بالنفس.

والنور الخامس هو نور القلب، وهو نور العقل المقيد بالقلب.

والنور السادس هو نور العقل، وهو نور الله المقيد بالعقل.

والنور السابع هو نور السر، وهو نور الله المقيد بالسر.

والنور الثامن هو نور الروح.

والنور التاسع هو نور الخفي.

والنور العاشر هو نور الأخفى.

قال الامام الصادق عليه السلام: "**إن الايمان عشر درجات بمنزلة السلّم..**"

إن أي نور يناله الانسان لا يمكن إلا أن يكون نور الله: فمن لم يجعل الله له نورا فما له من نور. فالنور الذي حصلت عليه النفس في أية مرتبة من مراتبها إنما وصل إليها من الله بعد أن عبر مراتب الروح والعقل وتنزل إليها. أو قل إن نور الله تعالى يتنزل مرتبة بعد مرتبة حتى يصل إلى النفس. والمحجوب

يرى النور الواصل إليه في مرتبة النفس مجرد انعكاس نور العقل، فهو يقول أن هذا نور العقل لأنه رآه مقيداً بخصائص العقل؛ والأصح أن يقول أنه نور الله المنعكس من مرآة العقل. فالنور نور مطلق والمرآة قيدته بحدودها وإطارها (رغم سعة مرآة العقل إلى ما لا تبلغه الأوهام)، وإن المرآة العقلية لتزداد اتساعا كلما تحرر العقل من سلطان الهوى النابع من سيطرة النفس. حتى إذا بلغ الحظ الأوفى ونال المرتبة العقلية التامة تشرق عليه أنوار الروح. أو فقل: إن نور الله المتجلي في مرتبة الروح ومرآتها ينعكس عليه.

إنه نور واحد بسيط هو النور المطلق. والانسان يأخذ منه بحسب احتجابه. فمن احتجب في مرتبة النفس كان حظه منه نفسا، ومن احتجب في مرتبة العقل كان حظه منه عقلا، وهكذا.. حتى يصل إلى مقام يزول معه الحجاب والاحتجاب بجذبة القرب التي تفني كل ما سواه، فينال النور المطلق وتشرق أرض وجوده الخلقي بنور الوجود الحقي وتتبدل الأرض غير الأرض.

ولكل مرتبة من النور مظاهر ودواع. فمن استجاب لدواعي نور العقل لحق به حتى يناله، ومن استجاب لدواعي نور الروح، انجذب إليه حتى يبلغه. وعلم السير والسلوك يتكفل ببيان دواعي كل مرتبة ومقتضياتها، التي يُنال بعضها بالمجاهدة وبعضها الآخر بالجذبة. ولهذا يكون السالك في المراحل الأولى مجاهدا، وفي المراحل اللاحقة منجذبا خاضعا لسلطان تجلياته سبحانه.

وللمجاهدة مهام وشروط ينبغي مراعاتها، وللجذبة أحوال وأحكام ينبغي استقبالها ورعايتها.

إن كل سير له صير. وبعبارة أخرى لكل سيرورة صيرورة. فمع عبور المراحل يتخذ الوجود الانساني صيرورة جديدة وطورا آخر. فهي مراحل عشر على الترتيب التالي:

المراحل العشر للسلوك

البدايات وهي مرحلة مجاهدة النفس الأمارة، ثم الأبواب وهي مرحلة ظهور انفعالات النفس اللوامة، ثم المعاملات وهي مرحلة النفس الملهمة، ثم الأخلاق وهي مرحلة طمأنينة النفس، ثم الأصول وهي مرحلة محطات القلب والاعداد للسفر إلى الله، ثم الأودية وهي مرحلة العقل والانطلاق إلى عالم الإطلاق، ثم مرحلة الأحوال وهي عالم السر وتجلياته، ثم مرحلة الولايات وهي مقامات الروح والفناء في عالم الوحدة، ثم مرحلة الحقائق وهي تجليات الخفي، وأخيرا النهايات وهي مرحلة الأخفى ومظاهر البقاء بالله.

فالبدايات إنما هي للعامة الذين لم يتجاوزوا الظاهر إلى الباطن فاشتغلوا برفع الموانع وقطع العلائق، حتى تظهر في نفوسهم تلك الانفعالات والآثار المنبعثة من أنوار قلوبهم فينفتح عليهم أبواب الباطن فيدخلوها.

ولما انفتحت أبـواب الغيب على العبد بإشراق نور الحق على القلب وانعكاسه إلى النفس، يطّلع القلب على الحضرة الإلهية بانفتاح عين البصيرة وتمرّن النفس بالطاعة فيأخذ القلب في المعاملة مع الحق لقوة اليقين وظهور آثار الأنس بطلوع أنوار القدس وتأخذ النفس في الاطمينان ومرافقة القلب في الترقي إلى مقامه واكتساب خواصه.

فإذا تكررت المعاملات القلبية مع الله بالنيات الصادقة ظهرت من دوام تكررها هيئات راسخة في النفس لتنورها بنور القلب وصفائه الحاصل ببركة المعاملات فيسهل عليه بسبب تلك الهيئات التي هي الاخلاق صدور الفضائل والخيرات وسلوك الطريقة كما قال تعالى: ﴿**فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى**﴾.

فيسمع نداء الحق بسبب صفاء النفس يدعوه للرجوع إليه فيعزم على السفر ويعد العدة ويجهز الأصول التي هي مباني السلوك وأسس السير، يبتني عليها قطع الأودية بنور القوة القدسية. وهي محطات للقلب، يقطعها بمعونة العقل، مثلما أن الأخلاق كانت منازل للنفس تكسبها بمعونة القلب.

فإذا تجاوزها اتضح سبيله وسهل، وانجذب بالمحبة إلى الحقيقة حتى يصل. لأن ما فوقها من الأحوال، وما بعدها: مواهب ليس للسعي فيها مدخل، ولا للكسب فيها مجال، وكأنها ثمار ما قبلها وآثار. أما ما تحت الأصول من الأخلاق وما قبلها من منازل النفس ومقاماتها، فهي وإن كانت مكاسب للقلب، لكن ذلك بالنظر إلى ما تحته من إصلاح النفس وتطويعها حتى تشايعه وتصاحبه في الترقي وقطع العلائق ورفع العوائق، حتى لا تمانعه في العروج، فهي ليست من الترقي في شيء.

وإنما مبادئ الترقي بعد تحصيل الشرائط والاستعداد هي هذه الأصول. ولا شك بأن حقيقة الإنسان هي القلب، المسمّى بالنفس الناطقة، وهو المتوسط بين عالم الألوهية، وعالم المخلوقية، فرتبته ومركزه وسط الوجود، ومنه مبدأ الترقي من مقامه الأصلي.

وإذا ثبتت الأصول وأحكمت يبدأ السفر إلى الله بالسلوك إليه عبر أودية السير. وإنما سُمّيت منازل هذا القسم أودية لأن معظم السير والسلوك يكون فيها. وفيها للسعي والاجتهاد قوة، وللعقل مدخل، وللشيطان تصرّف، وللكسب غلبة وظهور.

فلذلك قد يكون فيها مهالك ومخاوف، ويقع فيها معاطب ومهاوٍ، لازدحام الشبهات بحسب النظر العقلي، ولوجود مكائد الشيطان تزل عندها الأقدام، كما يكون في أودية البراري لمن يسافر فيها. ولولا التأييد الإلهي والبرهان

القدسي والهداية الشرعية، لضل فيها أكثر السالكين، لكثرة الآفات، ولكن الله يهدي بنوره من يشاء.

ولما كان الكسب في قسم الأودية غالباً، فإنه ينتقل بالتدريج إلى ما يظهر فيه قوة الجذب والموهبة حتى يضاهيا الكسب، ثم ينتقل إلى ما غلبت فيه الموهبة واختفى فيه الكسب في الوهب كالطمأنينة والهمة حتى ينتهي إلى قسم الأحوال التي هي مواهب محضة.

ويبدأ هذا القسم بالمحبة، التي هي نتيجة محبة الحق عبده، ومن سار بقدم المحبة ارتفعت عنه مشقة السعي والجهد، وكان سيره مقروناً باللذة والبهجة على مركب الوداد، بين سائق من التوفيق، وقائد من التحقيق بسابقة العناية ونور الكشف والهداية.

ومن بعدها يدخل في قسم الولايات التي هي مراتب الفناء، حيث يتولى الحق أمر عبده، فلا تصرّف له أصلاً، إذ لا وجود له، ولا ذات، ولا وصف ولا فعل. فهي مقامات الفناء بيد المفني، يفعل بعبده ما يشاء، حتى يمحو رسمه واسمه، ويمحق عينه وأثره، فيحييه بحياته، ويبقيه ببقائه.

والتمكّن آخر مقامات الولاية ونهاية مراتب التداني وبداية مقامات التدلي وهو أول السفر الثاني لأنه إذا رد إلى البقاء وخلع عليه خلعة الوجود والاصطفاء انشرح صدره بالله فشاهد رسوم الخلقية في عين الحقية فأوتي حقائق المعارف والحكم التي هي من أسرار الاسم الهادي لتكميل الناس بالاصالة إن كان نبيا وإلا فبالخلافة والوراثة إن كان وليا كما أوتي موسى عليه السلام بعد الاصطفاء، قال الله تعالى: **﴿فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين قال يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين﴾**.

أي تبت مما فرط مني من طلب الرؤية مع ابقاء الإنية وأنا اول المؤمنين أي سابقهم ومقدمهم وفي المقام الأقدم من بينهم من يصل إليهم نور الهداية الحقانية بواسطتي وعلى مظهري.

ولما اصطفاه ارسله إلى الناس وأمره بأخذ ما آتاه من الحكم والمواعظ وتفصيل كل شيء من الاحكام. فالولي في هذه الامة له من هذه المقامات نصيب على سبيل وراثة النبي محمد (صلى الله عليه وآله) وخلافته. وكما أن النبي لما فرغ من سلوكه في مقام أو أدنى فأوحى إلى عبده ما أوحى رد إلى مقام الخلقية والتنزل إلى مبالغ عقول الأمم فأقام نفوس أمته، مقام نفسه وأخذ يهديهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم؛ فكذلك هذا الولي الوارث إذا فرغ من سلوكه ألهمه الله بالمكاشفة وعلمه الحقائق بالمسامرة فيقيم نفوس الأحداث من المريدين مقام نفسه، ويربيهم ويعلمهم ويزكيهم وراثة وخلافة منه (صلى الله عليه وآله) ومن جملة ما يعلمهم هذه الحقائق.

والنهايات أمور ومقامات تحصل بعد السلوك والوصول بانتهاء السير إلى الله كما أن البدايات تتقدم على السلوك عند الانتباه والقيام من نوم الغفلة.

أبواب المراحل العشر

وتفاصيل كل مرحلة (المسمّاة أبوابا) ذكرها شارح المنازل القاساني بترتيب جميل:

"فإذا كانت أمّارة وتداركها التوفيق حتى تنبّهت عن سِنة الغفلة كان أول مقاماتها (اليقظة)، وهي أول مراتب (البدايات). وإذا تيقظّت وأحست ببعدها واتباعها للشيطان وكونها تحت ولايته وسلطنته (تابت) عن المخالفات. ثم خلطت عملاً صالحاً وآخر سيئاً فأخذت (تحاسب) نفسها حتى

غلبت حسناتها سيئاتها وقلت موانعها، (فأنابت) إلى الحق. ثم (تفكّرت) فيما يعينها ويرفع قدرها من الصالحات. ومن نتائج التفكر تبلغ إلى حد (التذكر) والاتعاظ والاعتبار (بالعبر). ثم (تعتصم) بالله وبحوله وقوته (فتفر) إليه من كيد الشيطان. ثم تحتاج إلى (الرياضة) لتلطيف السر، وبقدر لطافته تلتذ (بسماع) الوعد، وتتأثر بزواجر الوعيد وتتأذى بالنقصان.

فتقرع (أبواب الكمال) عند نهاية البدايات الرافعة للموانع، القاطعة للعلائق. وهذه كلها إصلاح قوى النفس التي هي الموانع، ودفع شيطان الوهم المسوِّل زينة الدنيا ولذّة الشهوات للنفس، وتمرينها للطاعة حتى تصير لوّامة: فتدخل أبواب الرحموت والرغبوت بمشاهدة المنّة، والرهبوت بالحذار من النقمة، (فتحزن) بما فاتته من المنجيات، و(تخاف) من عقبات المهلكات، (فتشفق) من سوء العاقبة وغلبة الخشية، و(تخشع) في طاعة الرب (فتخبت) إليه مذعنة، و(تزهد) فيما يشغلها عنه من طيبات الدنيا ومتاعها، ويغلب عليها (الورع)، فتنقطع و(تتبتل) إليه، (رجاء) لرحمة ربها و(رغبة) إليه.

وهذه كلها انفعالات في النفس وقواها لفيضان نور القلب عليها تجعلها مطيعة له مّجيبة لدواعيه في المعاملات وأول ما يبتدي به القلب في المعاملة (رعاية) الأعمال لتطمئن النفس بها مطواعة ثم (مراقبة) الحق في السير إليه مع تعظيم (الحرمة) وإيفاء حق الخشية ثم (الإخلاص) بتجريد العمل عن رؤيته وعن تشوف النفس به إلى عوض أو غرض ولو استحلاء نظر الخلق إليه فإنه محض الرياء ولا يتم العمل إلا (بتهذيبه) بالعلم ومخالفة العادة وارتفاع الهمة عن الوقوف معه باستقلاله ولا عمل إلا (بالاستقامة) فيه إلى الحق مجاهدا فيه حق جهاده، قاطعا نظره فيه وفيما يصل إليه من الرزق عن فعله وحوله وقوته؛ فيلزمه (التوكل) و(تفويض) أمره إلى الله (ثقة) به وبكفايته ثم (تسليم) ما يزاحم

العقول ويشق على الاوهام ويخالف القياس من تفاوت القسم وانتقال الدول.

فتخلص العقل من شوب الوهم بنور الشرع ليستعين به على إثبات الملكات الفاضلة في النفس التي هي الأخلاق ليبلغ كمال الإطمئنان (فيصبر) على المكاره وعن المشتهيات لعلمه بأن ما يجري عليه مقتضى حكمة الله وإرادته وليس له إلا ما قسم الله له، فيتحامل على النفس بالصبر حتى يبلغ حد (الرضا) بما قدر وقضى فيرضى و(يشكر) على ما يجري عليه ويعده نعمة وإن كان بلاء و(يستحي) من الله أن يسأله غير ما فيه ويتعود بذلك حتى يصير (صادقا) في الجد والجهد والعهد (فيؤثر) مع خصاصته ويسخو بموجوده لتساوي الفقر والغنى عنده، ويلزمه (الخُلق) مع الخَلق لأنه يراهم في أسر القدر، فلا ينازع أحدا في شيء بل يعذرهم في السيئة ويكرمهم في الحسنة ويشاهد عليهم آثار القدرة والحكمة، (فيتواضع) معهم لله ببذل المعروف وحمل الأذى، فضلا عن كفه؛ فيبلغ مقام (الفتوة) بصفاء القلب عن صفات النفس عند تمام الاطمئنان؛ (فينبسط) مع الخلق بكمال الخلق وارسال السجية مع الحق لطهارة القلب وارتفاع الموانع بالكلية والرجوع إلى الفطرة الأصلية ولهذا لما سأل موسى عليه السلام ربه عن الفتوة، قال: "أن ترد إلي نفسك طاهرة كما قبلتها مني طاهرة".

وعند ذلك تنقضي منازل النفس ويتحقق القصد ويتجرد العزم للسير إلى الله تعالى والتوجه التام إلى مقام السر لصيرورة النفس المانعة معينة و(القصد) الصادق أول الاصول، لأن الوصول إلى الرب و الدخول في حد القرب لا يكون إلا في مقام القلب، قال صلى الله عليه وآله عن الله تعالى "**لم يسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن**"، فيجيب بصحة (العزم) داعي الحق (بـالإرادة) وهي تعلق القلب بجناب الحق طلبا للقرب فيتأدب لشدة الحضور بين يديه بآداب الحضرة حتى بلغ جلية (اليقين) (فيأنس) به، فلا ينسى

ولا يغفل لكمال الأُنس بالحضور معه، وهو مقام (الذكر) القلبي، ولا يتم ذلك إلا بالذهول عن الغير وعدم الالتفات إلى ما سواه، وهو مقام (الفقر)، ولا يكون إلا لكمال (الغنى) بالحق، وذلك هو المراد بقوله عليه السلام: "**الغنى غِنى القلب**"، وعند ذلك يعصمه الله تعالى عن المخالفة، ويحجز بينه وبين المعصية، ولهذا قيل: "**العصمة نور ينقذف في القلب وتتنور به النفس فيمتنع معه صدور المعصية عن صاحبه**"، وهو مقام(المراد).

فيقع في أودية غيب العقل المنوّر بنور القدس، وفيها الأنوار والنيران والأخطار، إذ ربما يتراءى فيها المطلوب في صورة النار، كما في قوله تعالى: ﴿**إذ رءا ناراً**﴾ [10/20] وقوله: ﴿**بورك من في النار ومن حولها**﴾[8/27]، وقد يتراءى في صور الأنوار للتنزّل إلى رتبة الجن تارة، والترقّي إلى جناب القدس أخرى، كما في قوله: ﴿**إنك بالواد المقدّس طوى**﴾ [12/20]؛ وأولها وادي (الإحسان) لقرب اليقين فيه إلى العيان، ثم (العلم) و(الحكمة) على سبيل الموهبة، فيكتحل (البصيرة) التي هي عين القلب بنور الهداية، ويحدث (الفراسة) باستيناس حكم الغيب، فيثمر (تعظيم) الحكم، وينفتح عليه باب (الإلهام)، حتى تنزل (السكينة)، وتحصل (الطمأنينة) بكمال اليقين والأمن الشبيه بالعيان، فتقوي (الهمّة) الباعثة على التداني من المقصود ويبلغ بها مقام السر.

فتتوالى المواهب وتتعاقب الأحوال هناك، فتصير الإرادة (محبّة) فينجذب إلى المحبوب، وتسلبه (الغيرة) عن نفسه وغيره، فيزداد (الشوق)، ويقع في (القلق)، ويستولي عليه (العطش)، فيغلبه (الوجد)، ويستفزّه (الدهش) و(الهيمان) و(البرق)، ثم (الذّوق) ـ بالوصول إلى مقام الروح ولمعان أنوار الولايات (كاللحظ) المؤذن بالتجلّي، و(الوقت) المغلب لحكم الحال على حكم العلم، الموقع في التلوين، وكلّما (صفا) الوقت سقط التلوين وحدث

(السرور) بذهاب خوف الانقطاع وضحك الروح بروح نسيم الاتصال، ثم (السر) باستسرار حال العبد عنه، فلا يعلم ما هو فيه للطفه ودقّته، وهو المقام الذي قال فيه عليه السلام: "ربّ زدني تحيّرا"، ثم (النفَس) وهو روحٌ يحدث بانجلاء غمام الاستسرار وانكشاف ظلمة الاستتار؛ ثم (الغربة) و هو تبدّل حاله بحيث يرى الشاهد مشهوداً والطالب مطلوباً، فيكون غريباً في الدارين، ثم يقر حاله بأن يتوسّط المقام ويتجاوز حدّ التفرّق، فيسمّى حاله (الغرق)، ثم يقع في (الغيبة) عن حاله بوجود مشهوده من غير شعور له بحاله، ثمّ (يتمكّن) باستقرار الحال لابساً نوز الوجود، بأ ن يخفي عينه لتنوّره بنور مشهوده.

فيقع في (المكاشفة) العينيّة في مقام الخفي التي تشوبها عين الإثنينية، وتوصل إلى (المشاهدة) لا المكاشفة العلميّة التي هي من وادي الإلهام، لأن هذه من جملة الحقائق ـ والمشاهدة برفع الحجاب مطلقاً تؤدي إلى (المعاينة) بعين الروح، لأن الروح في مقام الخفي تنوّر بنور الحق، فرآه بنوره، ثم (يحيا) بحياته، ثم (يقبضه) الله إليه قبضاً فيه عن عينه، ثم (يبسطه) في عين القبض رحمة للخلق ليستضيؤوا بنوره، وقد يغلب البسط، فيفضي بصاحبه إلى (السكر) لسقوط التمالك من شدة الطرب، فإذا (صحا) كان (متصّلا) بالحقيقة، (منفصلاً) عن الكونين.

وفي كل ذلك اعتلال لبقاء إنيّته المنافية للفناء الذاتي، فإذا وقع في مقام (المعرفة) التامة بلغ النهاية (بالفناء) في الذات الأحدية، (فيبقى) ببقاء الحق، فكان الفاني فانياً في الأزل والباقي باقياً لم يزل (فيتحقق) بتحقيق الحق إياه، ثم يقع في مقام (التلبيس) بالظهور في رسوم الخَلق هدايةً لهم ورحمةً مع أنه في مقام (الوجود)، منخلعاً عن رسمه، وبعد ذلك لا يكون إلا (تجريد) عين الجمع عن درك العلم، ثم (تفريد) الإشارة إلى الحق من الحق بالحق في عين (الجمع)، وهو الحق بدون الخَلق، ثم (توحيد) الحق بذاته لذاته، في صور هياكله.

كما قال علي عليه السلام: "**نور يشرق من صبح الأزل فيلوح على هياكل التوحيد آثاره**" **﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو﴾** [18/3]

فهذه مراحل عشر، ولكل مرحلة مقتضيات وآثار تسمى أبوابا. وفي كل باب منها إشارة إلى ما يناله العبد في البدايات والنهايات وما بينهما من المراحل الثمانية التي أختصرها في درجة واحدة.

فما ذكره الشيخ الانصاري في كل باب تحت عنوان الدرجة الثانية يختصر المراتب الثمانية المتوسطة وأقسامها.ففي باب التوبة مثلا، نراه يقسّمها إلى توبة العامة وهم أهل البدايات، وإلى توبة الأوساط الذين يتوزعون على المراتب الثمانية، وتوبة الخاصة وهي توبة مشرفة على النهايات وأهل الوصول.

ولو تمكن من التفصيل لقال كما قال الشارح في المقدمة :

إن أصل التوبة في البدايات هو الرجوع عن المعاصي بتركها والإعراض عنها.

وفي الأبواب ترك الفضول القولية والفعلية المباحة وتجريد النفس عن هيئات الميل إليها وبقاء النزوع إلى الشهوات الشاغلة عن التوجه إلى الحق.

وفي المعاملات الإعراض عن رؤية فعل الغير والاجتناب عن الدواعي وأفعال النفس برؤية أفعال الحق.

وفي الأخلاق التوبة عن إرادته وحوله وقوته.

وفي الأصول الرجوع إلى الالتفات إلى الغير والفتور في العزم.

وفي الأوديـة الانخلاع عن علمه بمحو علمه في علم الحق، والتوبة عن الذهول عن الحق في حضوره ولو طرفة عين.

وفي الأحوال عن السلو عن المحبوب والفراغ إلى ما سواه ولو إلى نفسه.

وفي الولايات عن الهدو بدون الوجد وعن التكدر بالتلوين والحرمان من

نور الكشف.

وفي الحقائق عن مشاهدة الغير وبقاء الإنية.

وفي النهايات عن ظهور البقية.

لكن السؤال هو أنه لماذا ذكر التوبة في البدايات خاصة، رغم أن لها حضوراً في سائر المراحل. ولا تخلو مرحلة من مراحل السير من التوبة؟ ولماذا ذكر اليقين في الأصول رغم حضوره في سائر المراحل والأقسام؟ وهكذا..

والجواب هو أن الظهور الأبرز للتوبة إنما يكون في البدايات. مثلما أن الظهور الأبرز لليقين يكون في الأصول، كما أن الظهور الأبرز للتوحيد يكون في النهايات، علما أنه لا تخلو مرحلة من التوحيد. لكن توحيد أهل البدايات يكون مشوبا بالعلل، حتى لكأنه غير موجود لكثرة الشوائب المحيطة به.

فالابواب العشرة المذكورة في كل مرحلة هي أبرز ما يظهر في هذه المرحلة من مقامات ومنازل، لا أنها مختصة بها. ولعل هذه النقطة هي أهم ما ينبغي أن يعرفه كل من أراد دراسة هذا الكتاب وفهمه بصورة منهجية.

ولهذا بقي على الشراح أن يذكروا حضور كل باب من الابواب المئة في جميع المراحل التسعة الباقية. وقد قام الشارح القاساني بهذا أيضا، وذلك في القسم الثاني من كتابه الموسوم باصطلاحات الصوفية.

عربصاليم 2 رجب 1429

السيد عباس نورالدين
anourdin@gmail.com

من مقدمة الشيخ الانصاري

الحمد الله الواحد الأحد القيّوم الصمد اللطيف القريب الذي أمطر سرائر العارفين كرائم الكلم من غمائم الحِكم. وألاح لهم لوائح القِدم في صفائح العدم ودلّهم على أقرب السبل إلى المَنهج الأول وردّهم من تفرّق العلل إلى عين الأزل وبثّ فيهم ذخائره وأودعهم سرائره، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، الأول الآخر، الظاهر الباطن، الذي مدّ ظل التلوين على الخليقة مدّا طويلا ثم جعل شمس التمكين لصفوته عليه دليلا ثم قبض ظلّ التفرقة عنهم إليه قبضاً يسيراً وصلواته وسلامه على صفيّه الذي أقسم به في إقامة حقّه محمد وآله كثيراً.

وبعد.. فإن جماعة من الراغبين في الوقوف على منازل السائرين إلى الحق عزّ اسمه من الفقراء من أهل هراة والغرباء، طال عليّ مسألتهم إيّاي زماناً أن أبيّن لهم في معرفتها بياناً يكون على معالمها عنوانا،فأجبتهم بذلك بعد استخارتي الله تعالى واستعانتي به.

وسألوني أن أرتبها لهم ترتيباً يشير إلى تواليها،ويدل على الفروع التي تليها، وأن أخليه من كلام غيري وأختصره، ليكون ألطف في اللفظ، وأخف للحفظ، وإني خفت أني إن أخذت في شرح قول أبي بكر الكتّاني: "إن بين العبد والحق ألف مقام من نورٍ وظلمة" طوّلت علي وعليهم فذكرتُ أبنية تلك المقامات التي تشير إلى تمامها، وتدل على مرامها، وأرجو لهم بعد صدق

قصدهم ما قال أبو عبيد البسري: "إن لله تعالى عباداً يريهم في بداياتهم ما في نهاياتهم".

ثم إني رتّبته لهم فصولاً وأبواباً يغني ذلك الترتيب عن التطويل المؤدّي إلى الملال، ويكون مندوحة عن التسآل، فجعلته مائة مقام، مقسومة على عشرة أقسام.

وقد قال الجنيد رحمة الله عليه: "قد ينقل العبد من حال إلى حال أرفع منها، وقد بقي عليه من التي نقل عنها بقيّة؛ فيشرف عليها من الحالة الثانية فيصلحها".

وعندي أن العبد لا يصح له مقام حتى يرتفع عنه، ثم يشرف عليه فيصححه.

واعلم أن السائرين في هذه المقامات على اختلاف عظيم مفظع لا يجمعهم ترتيب قاطع، ولا يقفهم منتهى جامع.

وقد صنّف جماعة من المتقدمين والمتأخرين في هذا الباب تصانيف عساك لا تراها أو أكثرها على حُسنه مغنية كافية. منهم من أشار إلى الأصول ولم يشف بالتفصيل، ومنهم من جمع الحكايات ولم يلخّصها تلخيصا، ولم يخصص النكتة تخصيصا.

ومنهم من لم يميّز بين مقامات الخاصة وضرورات العامة. ومنهم من عدّ شطح المغلوب مقاما، وجعل بوح الواجد ورمز المتمكّن شيئاً عامّاً. وأكثرهم لم ينطق عن الدرجات.

واعلم أن العامّة من علماء هذه الطائفة والمشيرين إلى هذه الطريقة: اتفقوا على أن النهايات لا تصح إلا بتصحيح البدايات، كما أن الأبنية لا تقوم إلا على الأساس.

وتصحيح البدايات هو إقامة الأمر على مشاهدة الإخلاص، ومتابعة السنة، وتعظيم النهي على مشاهدة الخوف، ورعاية الحرمة والشفقة على العالم ببذل النصيحة وكف المؤنة، ومجانبة كل صاحب يفسد الوقت، وكل سبب يفتن القلب.

على أن الناس في هذا الشأن ثلاثة نفر: رجل يعمل بين الخوف والرجاء، شاخصاً إلى الحب مع صحبة الحياء، فهذا هو الذي يسمّى "المريد". ورجلٌ مختطف من وادي التفرّق إلى وادي الجمع، وهو الذي يقال له: "المراد". ومن سواهما مدّعٍ مفتونٌ مخدوع.

وجميع هذه المقامات تجمعها رُتب ثلاث: الرتبة الأولى أخذ القاصد في السير. والرتبة الثانية دخوله في الغربة. والرتبة الثالثة حصوله على المشاهدة الجاذبة إلى عين التوحيد في طريق الفناء.

وقد أخبرنا في معنى الرتبة الأولى الحسين بن محمد الفرائضي في سند ينتهي إلى رسول الله صلى الله عليه وآله قال رسول الله(ص): "سيروا سبق المفردون". قالوا: "يا رسول الله وما المفردون"؟ قال: "المهترّون، الذين يهترّون في ذكر الله، يضع الذكر عنهم أثقالهم، فيأتون يوم القيامة خفافا."

وهذا حديث حسن لم يروه عن يحيى بن أبي كثير إلا عمر بن راشد اليمامي.

وأخبرنا في معنى الدخول في الغربة حمزة بن محمد بن عبد الله الحسني، قال: أخبرنا أبو القاسم عبد الواحد بن أحمد الهاشمي الصوفي وقال: سمعت أبا عبد الله العلان بن زيد الدينوري الصفوي بالبصرة، قال: سمعت جعفر الخلدي الصوفي، قال: سمعت الجنيد، قال: سمعت السري، عن معروف الكرخي، عن جعفر بن محمد عن أبيه، عن جدّه، عن علي بن أبي طالب،

عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: "**طلب الحق غربة**".

وهذا حديث غريب ما كتبته إلا من رواية علان.

وأخبرنا في معنى الحصول على المشاهدة محمد بن علي الحسين الباشاني في سند ينتهي إلى رسول الله في حديث سؤال جبرئيل رسول الله قال: "ما الإحسان؟" قال: "أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك."

وإني مفصّل لك درجات كل مقام منها لتعرف درجة العامة منه ثم درجة السالك، ثم درجة المحقق. ولكل منهم شرعة ومنهاج ووجهة هو مولّيها قد نُصب له علم هو إليه مبعوث، وأتيح له غاية هو إليها محثوث.

وإني أسأل الله أن يجعلني في قصدي مصحوباً لا محجوباً وأن يجعل لي سلطاناً مبيناً، إنه سميع قريب.

مرحلة البدايات

وفيها عشرة أبواب

اليقظة والتوبة والمحاسبة

والإنابة والتفكر والتذكر

والاعتصام والفرار

والرياضة والسماع

وهي مرحلة مجاهدة النفس بعد القيام لله تعالى في جميع الأمور الفردية والاجتماعية بانبعاث نور اليقظة الحاصل بالتفكر. وهي مقدمات للسفر سابقة على السير إلى الله تعالى.

اليقظة

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ﴾ [46/34]

واليقظة إنما تكون من سنة الغفلة والنهوض من ورطة الفترة وهي أول استنارة للقلب بالحياة من خلال رؤية نور التنبيه.

واليقظة في ثلاثة أشياء:

الأول: ملاحظة النعمة بالقلب، باليأس من عدّها والوقوف على حدّها، والتفرغ إلى معرفة المنّة بها، والعلم بالتقصير في حقها.

وإنما تصفو معرفة النعمة بثلاثة أشياء: بنور العقل وشيم برق المنّة والاعتبار من أهل البلاء.

الثاني: مطالعة الجناية والوقوف على الخطر فيها، والجد في تداركها والتخلص من أسرها، وطلب النجاة بتمحيصها.

ولا تصح هذه المطالعة إلا بثلاثة أشياء: تعظيم الحق، ومعرفة النفس، وتصديق الوعيد.

الثالث: الانتباه لمعرفة الزيادة والنقصان في الأيام، والتنصل من تضييعها، والنظر إلى الضن بها، ليتدارك فائتها ويعمر باقيها.

ولا تستقيم هذه المعرفة إلا بثلاثة أشياء: بسماع العلم، وإجابة دواعي الحرمة، وصحبة السالكين.

وملاك ذلك كله خلع العادات.

تعليقات

لا شك بأن الإنسان المنغمر في غواشي النشأة الدنيوية والمنشغل بمقتضيات عالم الطبيعة الذاهل عن الحق ونور الفطرة يكون كالنائم بالحقيقة. فلا بد من منبّه، وهو واعظ الله في قلبه الذي يُقذف من نور الإسم "الهادي"، وهو أيضاً نور الفطرة التي فطر الناس عليها.

فإذا رأى هذا النور، فقد وصل قلبه بالحق، فيقوم لله في جميع شؤونه مبتدئاً رحلة التجرد عن البدن، مفتتحاً أول مقامات البدايات.

والنعمة الإلهية غير محدودة، ولهذا لا يمكن عدّها. وكل نعمة هي محض المنّة من الله، لا ينالها أحد من العالمين على سبيل الاستحقاق على ربه. فكيف يمكن القيام بحقها من الشكر؟! أوليس التوفيق للشكر نعمة أخرى تستوجب شكرا؟.

لا يمكن تدارك الجناية والمعصية إلا بالاستعاذة بالله الهادي، الذي يوفق العبد للتكفير عن ذنوبه وقضاء ما فاته من الطاعات،حتى يتحرر من أسرها، ويطهر من كدورتها.

ومن علامات اليقظة أن يعرف السالك ما يكون سبباً لزيادة الطاعات والخيرات، وما يكون سبباً في النقصان والحرمان.

إن صفاء المعرفة يكون بتلمس البوارق والإشارات التي تحكي عن هطول أمطار المنن الإلهية. فمن عرف شيئاً من حقوق المنعم الوهاب، صار متلهفاً لنعمه من باب استدرار سحائب الجود، لا على نحو الاستحقاق، ومن باب طلب رؤية المنّة لا بفعل المقدمات وإعمال الوسائل.

ومن عظم الحق تعالى في نفسه، رأى عظيم جنايته عظيماً، ومن عرف قدر نفسه علم أن جرأة من هو أحقر الأشياء على من هو أعظم العظماء أقبح. ويكمل

ذلك بتصديقه للعقاب الذي توعّد به العصاة.

وكيف يمكن أن يعرف المنجيات من المهلكات ما لم يتعلم. ومن عظّم الحرمات فقد استجاب لدواعيها، لأنها تقتضي ذلك.

ولما اعتادت هذه النفس على اللذات الدنيوية واستأنست بأنواع المتع والراحات، وصارت تلك الأمور عادات، لهذا فإنها إذا استيقظت احتاجت خلع هذه العادات والدخول في الرياضات والمجاهدات.

التوبة

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [11/49]

التوبة لا تصح إلا بعد معرفة الذنب.

وهي، أن تعلم ثلاثة أشياء:

انخلاعك من العصمة حين ارتكابه

وفرحك عند الظفر به

وإصرارك على عدم تداركه مع يقينك بنظر الحق إليك

وشروط التوبة ثلاثة:

الندم بالقلب

والاعتذار بكثرة الاستغفار

والإقلاع بالجوارح

وحقائق التوبة ثلاثة:

أن تعظم الجناية في نفسك

وتشك في توبتك

وتطلب دوماً العذر للناس دونك

وأسرار هذه الحقائق ثلاثة:

تمييز التقوى من الرياء والتظاهر

ونسيان الجناية

والتوبة من التوبة أبداً، لأن التائب مأمور أيضاً بالتوبة، فهو داخل في قوله تعالى: ﴿وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون﴾

ولطائف هذه الأسرار ثلاثة:

أولها: أن تنظر إلى الجناية والقضية، فتعرف مراد الله فيها إذ خلّى بينك وبين ارتكابها. فإن الله تعالى إنما يخلّي العبد والذنب لأحد معنيين:

أحدهما: أن تعرف عزّته في قضائه، وبرّه في ستره، وحلمه في إمهال راكبه، وكرمه في قبول العذر منه، وفضله في مغفرته. فتعرف بذلك بعض صفاته وأسمائه الحسنى.

والثاني: ليقيم على العبد حجّة عدله، فيعاقبه على ذنبه بحجّته. فإن الذنب مظهرٌ لباطن النفس وخبثها.

ثانيها: أن يعلم أن طلب البصير الصادق سيئاته وملاحقتها لن يبقي له حسنة بحال، لأنه يسير بين مشاهدة المنّة الإلهية وملاحقة عيوب النفس والعمل.

ثالثها: أن مشاهدة العبد الحُكم لم تدع له استحسان حسنة ولا استقباح سيئة، لصعوده من جميع المعاني إلى معنى الحكم الإلهي وهو أنه لا مؤثّر إلا هو.

فتوبة العامة لاستكثار الطاعة، وهو يدعو إلى ثلاثة أشياء:

إلى جحود نعمة الستر والإمهال

ورؤية الحق على الله تعالى

والاستغناء الذي هو عين التجبر على الله والتوثّب عليه

وتوبة الأوساط من استقلال المعصية

وهو عين الجرأة والمبارزة لله

ومحض التدين بتبرئة النفس والدفاع عنها

والاسترسال في الذنوب المقتضية للقطيعة

وتوبة الخاصة من تضييع الوقت

فإنه يدعو إلى مهوى النقصان

ويطفئ نور المراقبة

ويكدر عين الصحبة

ولا يتم مقام التوبة إلا بالانتهاء إلى التوبة مما دون الحق سبحانه، ثم رؤية الخلل في تلك التوبة، ثم التوبة من رؤية تلك العلّة والخلل.

تعليقات

لا يرتكب العبد ذنباً إلا إذا خرج من عصمة الله التي يعصم بها الناس جميعاً. فالأصل أن النفس أمّارة بالسوء ميّالة للباطل موغلة في العصيان. ولو رُفعت العصمة الإلهية عنها لحظة لسقطت في مستنقع المعصية.

وقد جاء في الخبر "لا تنظر إلى صغر المعصية، بل انظر إلى من عصيت". وبهذا تعظم الجناية في النفس وتقبح. ومهما بالغ العبد في التوبة، فلا ينبغي أن يظن أنه قام بحقها، بل يتهم نفسه وتوبته، لعله بذلك يقوم بحق العبودية. وإذا أعذر الناس واتهم نفسه، فسوف يرى نفسه شر الناس، فينفرد في الذنب، ويضاعف عنده عظيم جنايته، ولا يرى أحدا أسوأ حالاً منه.

وبعد الإخلاص والتقوى في التوبة، ينبغي أن يلتفت إلى أن ذكر الجفاء في وقت الصفاء جفاء. فإذا خلوت بربّك ولاطفك بعنايته الخاصة بذكر أياديه، فاعلم أن الوقت هنا وقت الشكر والفرح بفضل الله ورحمته. فلا تستحضر جنايتك فتنسيك شكره والسرور به حيث ينبغي.

ولا شك بأن في التوبة وذكر الجناية ذكر لما سواه. فعليك أن تتوب من ذلك. وهو المعبّر عنه بالتوبة من التوبة. فكلما ترقّى السالك إلى مقام أعلى ظهر له علّة المقام السافل. وحسنات الأبرار سيئات المقربين.

والعبد يعلم أن الله تعالى كان قادراً على منعه من ارتكاب هذا الذنب أو ذاك بألف طريقة. لكنه سبحانه يخلّي بينه وبين نفسه لتعمل على حقيقتها وشاكلتها، لكي يعرف منه عز وجل صفات لم يكن ليراها لولا ذلك، وليعلم عدله إذا عاقبه. لأن الذنب يظهر خبث الباطن وسوءه.

والبصير في توبته يراها فضلاً من الله وتوفيقاً. فماذا يبقى له من حسنات. وإن رآها مشوبة علم أنها من نفسه.

والعامّة عند هذه الطائفة إذا تابوا لم تكن توبتهم إلا لاستكثار الطاعة بناء على ظاهر قوله تعالى ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾(الفرقان:70)فإنهم يتوبون للازدياد والاستكثار، وهو عند

الخواص سوء أدب مع الله، يستدعي سيئات كثيرة: فقد ظنوا أن الله لم يعاقبهم لأنهم تابوا، لا لستره وإمهاله. وهما نعمتان إلهيتان عظيمتان. وأنهم أوجبوا على الله بتوبتهم أن يثيبهم، واستغنوا بذلك. فتراهم مطمئنين لا من بشارة إلهية بل من النفس والأهواء.

أما المتوسطون في السلوك، فإنهم لما استغرقوا في صفات الله ومشاهدة قضائه عليهم بما صدر منهم، استقلّوا ما صدر منهم في جنب ما رأوا من عظيم رحمته وعفوه. ومثل هذا هو عين الجرأة والمبارزة لله في كبريائه وربوبيته. وأكثر من يقع في ذلك من يسلك بنفسه من غير أستاذ يربّيه ويؤدّبه. ولهذا فإن عليهم التوبة من هذا الاستغراق، لأنه مخاطرة تؤدي إلى الهلاك.

والخاصة الذين هم أهل الشهود، إذا كان لهم وقت مع الله حين الإشراف على مقام الجمع فإن توبتهم تكون من تضييعه، لأنهم كانوا على وشك التمكن فيه وبلوغ الكمال المطلوب. كل ذلك بسبب رؤية الأغيار وانطفاء نور المراقبة الموجب لحفظ الوقت، وكدورة الصحبة مع الله في مقام المشاهدة، هذه الكدورة التي نشأت من بقاء الإنية.

والتوبة مما دون الحق إنما تكون في مقام الفناء. والتلوين في هذا المقام يكون بظهور إنّية العبد. لأنه إذا رأى أنه تائب، رأى إنّيته. وهي علّة التوبة وسقمها في هذا المقام. لكنه قد يرى نفسه وهي تنظر إلى العلّة. فهذه علة أخرى وتلوين. فعليه أن يتوب من ذلك، وعندها لا يرى نفسه تائباً أو رائياً.

المحاسبة

قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد﴾ [18/59]

إنما يُسلك طريق المحاسبة بعد العزيمة على عقد التوبة.

وللمحاسبة ثلاثة أركان:

أحدها: أن تقيس بين نعمته وجنايتك. وهذا يشق على من ليس له ثلاثة أشياء: نور الحكمة، وسوء الظن بالنفس، وتمييز النعمة من الفتنة.

ثانيها: تمييز ما للحق عليك عما لك أو منك. فتعلم أن الجناية حجة عليك، والطاعة منّة منه، والحكم عليك حجة، ما هو لك معذرة.

ثالثها: أن تعرف أن كل طاعة رضيتها عن نفسك فهي عليك، وكل معصية عيّرت بها أخاك فهي إليك. فلا تضيع ميزان وقتك من يديك.

تعليقات

المحاسبة أثر للعزيمة المحققة التي ترتبط بعقد التوبة وميثاقها. فمن عزم صادقاً على التوبة حاسب نفسه. ولهذا، فإن الأمر يرتبط بالعزيمة قبل أي شيء. وقيل أن المحاسبة توفيق لا يتحقق إلا بعد إحكام حقائق التوبة.

ولكل محاسبة ميزان. ومحاسبة النفس تقوم على ثلاثة أمور:

أولها: مقارنة نعمه تعالى بمعاصينا. لأن المحاسبة حساب الربح والخسارة. فالنعم (بكل أبعادها) أرباح العبد، والمعاصي خسائره.

ولكي يكون دقيقاً في حساباته يحتاج إلى الحكمة وهي معرفة النعم والمعاصي. وحتى لا يغيب عنه شيء من سيئاته، فعليه أن يسيء الظن بنفسه، كما يحاسب الشريك شريكه.

ولا بد من تمييز النعمة التي هي ربح، من النعمة التي هي استدراج كما في حديث أمير المؤمنين(ع): "رب مستدرج بالإحسان إليه". لأن هذه النعم ليست من الأرباح في شيء.

إن كل الطاعات توفيقات إلهية ومنن ربانية، فهي ليست منك. أما المعاصي فهي منك. فإذا حكم الله عليك بقضائه وقدره، فذلك مقتضى ما عليه ذاتك لا عذر لك فيه، حتى تقول قد وقع الأمر علي من خارج نفسي وليس لي به دخل.

ومن رضي عن نفسه وظن أنه بطاعته قد أدى حق ربه فقد جهل وأساء، لأن مقتضى العبودية عدم الخروج عن حد التقصير، وحق الربوبية أعظم من أن يقوم به عبد ذليل.

ومن عيّر أخاه بمعصية (وهذا غير النهي عن المنكر)، فكأنه ادّعى لنفسه العصمة. وهذه الدعوى عين الرعونة وفيها المعصية أشد والإساءة أعظم.

الإنابة

قال الله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ﴾ [39/ 54]

التوبة رجوع عن المخالفة إلى الموافقة.
والإنابة هي الرجوع إلى الله تعالى، فهذا أعلى.
والإنابة ثلاثة أشياء:

الأول: الرجوع إلى الحق للإصلاح، كما رجع إليه اعتذاراً.

الثاني: الرجوع إليه للوفاء بالعقد كما رجع إليه عهداً.

والثالث: الرجوع إليه في حاله(بعد مقاله) كما رجع إليه إجابةً.

وإنما يستقيم الرجوع إليه إصلاحاً بثلاثة أشياء:

بالخروج من تبعات المعاصي والذنوب

والتوجع للعثرات والتألم منها

واستدراك الفائتات بالقضاء والتكفير

وإنما يستقيم الرجوع إليه وفاءً بثلاثة أشياء:

بالخلاص من لذة الذنب

وبترك الاستهانة بأهل الغفلة تخوفاً عليهم وهو يرجو لنفسه

وبالاستقصاء في الإطلاع على علل وعيوب الخدمة والطاعة

وإنما يستقيم الرجوع إليه حالاً بثلاثة أشياء:

باليأس من عملك

ومعاينة اضطرارك

وشيم برق لطفه بك

تعليقات

إذا خرج العبد من المعصية بالتوبة، فعليه أن ينظر فيما تركت تلك المعصية من آثار وتبعات عليه وعلى غيره، ليقوم بالإصلاح. وهذه هي الإنابة. وإذا كان مستغفراً بلسانه فليجعل حاله موافقاً لمقاله.

وأهم علامات الإنابة السعي الصادق لرد المظالم والتكفير عن الذنوب، كلاً بحسبه، مع الشعور بالألم الباطني والتوجع في القلب كلما تذكره. ومن وفّقه الله للإنابة، فإنه ينشغل بذنبه عن ذنوب غيره. فكلما تذكر ما فعل خاف ووجل، وإذا ذكر معاصي غيره رجا لهم المغفرة. وإذا توغل في الإنابة عرف ما في طاعاته وأعماله من آفات وعيوب، وأدرك ما لم يكن يعرفه من قبل من تقصير وذنوب.

ولا ييأس العبد من عمله إلا إذا شهد أنه من الله وحصر التأثير به سبحانه. فالمنيب هو الذي يرى أعماله الصالحة حسنات من الله لا من نفسه، ولو خلّى الله بينه وبين نفسه لأهمل وضيّع. فيعاين اضطراره وافتقاره، ويعلم أن كل خير من الله إنما يكون على سبيل الامتنان. ومن استغرق في الامتنان وسبح في بحر التوحيد رأى إشراقات اللطف ولوامعه. وذلك من سنّة الله في عباده.

التفكر

قال الله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [16 :44]

التفكر تلمُّسُ البصيرة لإدراك المبتغى

وهو على ثلاثة أنواع:

التفكر في عين التوحيد، وهو اقتحام بحر الجحود ولا ينجي منه إلا الاعتصام بضياء الكشف، والتمسك بالعلم الظاهر.

التفكر في لطائف الصنع، وهو ماء يسقي زرع الحكمة

والتفكر في معاني الأعمال والأحوال، وهو يسهل سلوك طريق الحقيقة

وإنما يتخلّص في النوع الأول بثلاثة أشياء:

بمعرفة عجز العقول

وباليأس من الوقوف على الغاية

وبالاعتصام بحبل التعظيم

وإنما تُدرك لطائف الصنع بثلاثة أشياء:

بحسن النظر في مبادئ المنن

وبالإجابة لدواعي الإشارات

وبالخلاص من رق الشهوات

وإنما يوقف بالتفكر على مراتب الأعمال والأحوال بثلاثة أشياء:

باستصحاب العلم

واتهام المرسومات

ومعرفة مواقع الغيرية

تعليقات

التفكر هو حركة العقل المقيّد نحو مطلوبه، وهو العقل الكامل.

وإنما كان التفكر في عين التوحيد اقتحاماً لبحر الجحود، لأن التفكر استدلال بالغير على المطلوب. فهو إثبات للغير مقابل الحق. والتوحيد الخالص إنما يكون بفناء الكل في الحق. ولا ينجي منه إلا الاعتصام بضياء الكشف المبين لحقيقة الأشياء، النافي للغيرية والسوائية مقابل الحق تعالى. أو التمسك بالعلم الظاهر كالآيات والأحاديث الشريفة التي تمنع المتفكر من الاستنتاج البعيد عن التوحيد لما تتضمنه من معانٍ عميقة يعترف فيها هذا المتفكر بعجز عقله المقيّد عن الوصول إلى غاية التوحيد، ويدرك أن الله سبحانه أعظم من أن تدركه العقول بالأوهام.

وقد تجلى الله تعالى في عالم الأكوان والصنعة، وبث فيه ما نعجز عن الإحاطة بتفاصيل حكمته. ففي كل شيء له آية، وفي كل حادث اجتماعي أو روحاني له حضور. يرسل إلينا برسائل التجليات والآيات لنعلم حقائق الأشياء وأحكامها، ونسلك في دروب الحياة على أساسها. وليس هذا إلا الحكمة التي من أوتيها فقد أوتي خيراً كثيراً. وبداية إدراك الآيات والتجليات تكون بحسن النظر في ما أنعم الله علينا أو سخّره لنا، حيث نتعرّف على الأكوان ولطائف صنع الله فيها من خلال نفعها لنا. فليست المخلوقات والحوادث أموراً جامدة صامتة بعيدة عن سيرنا في هذه الحياة، بل كل شيء فيها (ظاهرة وباطنة) يتوجه إلينا بالفائدة.

وإذا تكاثرت الإشارات من المنعم الوهاب شعر المتفكر بوجوب شكره وطاعته، فيستجيب لدواعيها ويبتعد عن الشهوات ويخلص من أسرها. وهناك يجعل الله له نوراً يفرق به بين الحق والباطل.

ولا شك بأن من عرف معاني الأعمال أدرك أنها منن الله. سواء في مبادئها وبواعثها أو في القدرة عليها أو التوفيق إليها. وكذلك الأحوال، فإن معانيها توصل إلى معرفة التجليّات والواردات التي هي إشراقات أنوار الجلال والجمال. ولا شك بأنها تسهل سلوك طريق الحقيقة، لأنها نداءاتها.

ومصطلح العلم عند هذه الطائفة هو العلم بظاهر الشريعة. والرسوم هي الحدود والقيود العدمية، وهي قيود الوجود المطلق المعبّر عنها حينا بالخلق. واتهام الرسوم يعين السالك على اختراقها. ولا شك بأن رؤية الأعمال والأحوال تقيّد بالغيرية، لأنها من وجه ظهور ربوبية النفس. فعلى السالك أن يلتفت في سيره إلى مواقع الغيرية لكي يستعيذ منها، حتى يصل إلى التوحيد الخالص.

التذكر

قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ [13/40]

التذكر فوق التفكر، فإن التفكر طلب المفقود، والتذكر وجود.

وأبنية التذكر ثلاثة أشياء:

الانتفاع بالموعظة

واستبصار العبرة

والظفر بثمرة الفكرة

وإنما يُنتفع بالموعظة بعد حصول ثلاثة أشياء:

شدة الافتقار إليها

والعمى عن عيوب الواعظ

وذكر الوعد والوعيد

وإنما تُستبصر العبرة بثلاثة أشياء:

بحياة العقل

ومعرفة الزيادة والنقصان في الأيام

والسلامة من الأغراض

وإنما تُجتنى ثمرة الفكرة بثلاثة أشياء:

بقصر الأمل

والتدبر في القرآن

وقلة المخالطة والتمني والتعلقات والشبع والمنام

تعليقات

التفكر حركة العقول المحتجبة نحو المطلوب. ففيه إثبات وتقديم للغير على الحق. والتذكر رفع الحجاب أو ارتفاعه عند انبعاث نور الفطرة المتصلة بروح الله. فهو من هذه الجهة أعلى وأرفع.

والانتفاع بالموعظة يكون بالعمل بمقتضاها والتحرك وفقها. وذلك لا يكون إلا بعد اشتداد الحاجة إليها. ومن شغلته عيوب الواعظ (سواء أكانت حقاً أم وهماً) شُغل عن الموعظة. وقد قال أمير المؤمنين(ع): "لا تنظر إلى من قال، وانظر إلى ما قال". وتقوم المواعظ على الترغيب والترهيب، ولا تحصل الرغبة أو الرهبة إلا بعد تصديق وعد الله بالثواب ووعيده بالعقاب.

ولقد ملأ الله أركان الحياة بالعبر. فما أكثر العبر وأقل الاعتبار. فمن استبصر العبرة تذكر، لأنها بمنزلة الدروس الملهمة. ولن يكون مستبصراً إلا من أحيا عقله بتمييز العدو من الصديق والمنافع من المضار وتشخيص الأولويات. وبمقدار ما يميّز ويشخص تكون لعقله الحياة. وقد جرّب القوم كما ينقل شارح المنازل أن الإكثار من ذكر "يا حي يا قيّوم يا من لا إله إلا أنت" يوجب حياة العقل.

وعندما يتجرد من الأغراض والمصالح الشخصية يقدر على تحديد العبر أينما وجدت.

وإن قصر الأمل باستقراب الأجل. ومن استقرب الأجل زهد في الدنيا. ومن زهد في الدنيا بصّره الله عيوبها، فاستقلّها وعلم أن الذكرى للحق تعالى. والتدبر في القرآن عبارة عن فتح أبواب الذكر، وتحطيم الأقفال التي على القلوب.

وما دام البال مشغولاً والذهن متوجهاً إلى سفاسف الأمور ومحقّراتها، لم يفتح له باب التفكر في القضايا الكبرى، الذي هو طريق التذكر. لهذا يوصي بالتقليل من مخالطة الناس الذين يشغلونه بكثير من الأمور التافهة. ويؤكد على التقليل من الأماني والتعلقات والشبع والنوم. فهي أمور توجب بلادة الذهن وغفلة القلب. ومن أراد معرفة المزيد عن آثار هذه الأمور فليرجع إلى الروايات الشريفة، ففيها أسرار لا تُحصى.

الاعتصام

قال الله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ [3/ 103]
﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ﴾ [22/ 78]

الاعتصام بحبل الله هو المحافظة على طاعته مراقباً لأمره.
والاعتصام بالله هو الترقي عن كل موهوم، والتخلّص من كل تردد.

والاعتصام على ثلاث درجات:

اعتصام العامة بالخبر استسلاماً وإذعاناً بتصديق الوعد والوعيد
وتعظيم الأمر والنهي
وتأسيس المعاملة على اليقين والإنصاف وهو الاعتصام بحبل الله

واعتصام الخاصة بالانقطاع، وهو:

صون الإرادة بقبضها عن التعلق بما سواه
وإسبال الخُلق على الخلق بسطاً
ورفض التعلقات بعزم راسخ

واعتصام خاصة الخاصة بالاتصال وهو:

شهود الحق تفريداً
بعد الخضوع له تعظيماً
والاشتغال به قرباً
وهو الاعتصام بالله

تعليقات

يعصم الله تعالى عباده بحبل منه. ومنهم من يعتصم بحبل من الناس، وهم الذين ربطوا إيمانهم بقوة من حولهم أو تأييدهم لهم ودعهمهم. والعصمة أمر مانع تشتد وتضعف. فحبل الناس منقطع، لا قوة فيه إلا بنظر المحجوب. والاعتصام بحبل الله مقدمة للاعتصام بالله، بل هو مظهره وتجلّيه.

وقد مدّ الله تعالى حبله من السماء العلى إلى ما تحت الثرى، لكي لا يترك لأحد حجة. فأينما كان الإنسان يجد حبلاً من الله يتمسك به. وأعظم مظاهر حبله: القرآن والعترة الطاهرة لا يضل من تمسك بهما أبداً وهما شجرة طيبة ذات فروع، تظهر في شرع الله ووعده ووعيده وأوامره ونواهيه. فمن تمسك بالفروع والأصول فقد اعتصم بحبل الله تعالى. ومن مظاهر هذه الشجرة الطيبة في حياة البشر اليقين والعدل في التعامل مع الله والخلق.

فحق الله أن تثق به وحق الناس أن تعاملهم بالإنصاف.

وإذا أراد السالك أن يبلغ مقام الاعتصام بالله، فعليه أن ينقطع إليه. وذلك لا يكون إلا بعد الانقطاع عمّن سواه، بحفظ الإرادة من التعلق بغير الحق، لكنه في نفس الوقت يبسط خُلقه مع الناس. وقد جرّب أهل الله وعرفوا أن التعلق بالخلق أصل سوء الخُلق وانقباضه. لأن انتظار فضلهم واعتبار الحق للنفس عليهم، يجعل المرء مستاءً عند أي تقصير منهم، فيضطرب وينزعج،ويقوده ذلك إلى العداوة معهم.

وشهود الحق تفريداً إنما يحصل عند فناء الشاهد في المشهود، فلا يكون في هذا الشهود لغير الحق عين ولا أثر. وذلك بعد الفناء الخضوعي الحاصل من إدراك عجزه وذلّه وفقره أمام قدرة الله وعزته وغناه. وهو مقدمة غاية القرب الذي هو الوصول.

الفرار

قال الله تعالى: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ [50/51]

الفرار هو الهرب من "ما لم يكن" إلى "ما لم يزل".
فهو الهروب من الغير إلى الحق.

وهو على ثلاث درجات:

فرار العامة: من الجهل إلى العلم عقداً وسعياً
ومن الكسل إلى الجد حذراً وعزماً
ومن الضيق إلى السعة ثقةً ورجاءً

وفرار الخاصة: من الخبر إلى الشهود
ومن الرسوم إلى الأصول
ومن الحظوظ إلى التجريد

وفرار خاصة الخاصة: مما دون الحق إلى الحق
ثم من شهود الفرار إلى الحق
ثم الفرار من الفرار إلى الحق

تعليقات

لا يخلص العبد من الجهل إلا إذا كان علمه عن اعتقاد ويقين، ولا يثبت علمه في نفسه إلا بالتطبيق والعمل والسعي. ولا يمكنه أن يسلك طريق الله إلا بالجد والاجتهاد حذراً من التوقف والسقوط وعزماً على اللقاء والوصول.

وما دام منشغل البال برزقه ورزق عياله ودنياه ومعيشته، فإن صدره سيكون ضيقاً لا يتسع لما أعدّ الله له من أنوار الكرامات. فعليه أن يفر إلى الله مبتدئاً ذلك بحسن الظن به والثقة بتدبيره.

والخاصة من أهل الله يفرّون من الغيبة إلى الشهود، ولا يكتفون بمجرد الإخبار عن بعد، ومن أنواع الرسوم الخلقية أو الاعتبارية إلى الأصول التي هي حقائق الأشياء. ولا يكتفون بظاهر الشريعة، بل يطلبون باطنها وأسرارها ليقيدوا قلوبهم بها ويوجهوا أنفسهم إليها. وفرارهم من طلب حظوظ النفس (مهما كانت) إلى التجرد منها وإلى مقام أريد أن لا أريد.

أما الخاصة منهم فإن فرارهم مما سوى الحق إليه سبحانه. وإذا شهدوا هذا الفرار رأوا لأنفسهم وجوداً في حال الشهود، فيفرّون من هذا الوجود الذي تمثّل في ذاك الشهود. وعندما تدركهم العناية الأزلية من فيضه الأقدس يرون الفرار وجوداً، فيفرّون منه، حتى لا يبقى في الدار غيره ديّاراً.

الرياضة

﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [60/23]

الرياضة تمرين النفس على قبول الصدق.

ومعناه أن يعوّد نفسه الصدق بالتكلف في القول والعمل والنية، ويصدّق ما جاءه من الحق. فيكون مطابقاً في كل وجوده لما هو حق في كل الوجود.

وهي ثلاث درجات:

رياضة العامة: تهذيب الأخلاق بالعلم
وتصفية الأعمال بالإخلاص
وتوفير الحقوق في المعاملة

رياضة الخاصة: حسم التفرق
وقطع الالتفات إلى المقام الذي جاوزه
وإبقاء العلم يجري مجراه

ورياضة خاصة الخاصة: تجريد الشهود
والصعود إلى الجمع
ورفض المعارضات
وقطع المعاوضات

تعليقات

برنامج تهذيب الأخلاق هو الشرع الأنور المعبّر عنه عند هذه الطائفة بالعلم. فمتى ورد هذا المصطلح قُصد به ظاهر الشريعة إلا إذا وردت قرينةٌ صارفة. ولا شك بأن الأعمال لن تكون وسيلة للرياضة إلا إذا خلُصت لله من الرياء والسمعة وطلب حظوظ النفس. وتوفير الحقوق إنما يكون بتعظيمها سواء أكانت حقوق الحق أم الخلق ورعايتها في التعامل معهم. فلا يبخل بحق أحد منهم أو يعتدي عليه.

والتفرّق ينشأ من التوجه إلى غير الله. فالخاصة يرتاضون في قطع مادته وحسم منشأه. وإذا عبروا المقامات، فإنهم لا يلتفتون إلى ما سبق منها لأنه نظر إلى مقامات النفس.

إن المقامات المعنوية، مهما كانت، هي عبارة عن مقامات النفس. فما دام في البين مقام ونظر إلى المقام وعبور المقام، كانت النفس والسوى والإنيّة. والخاصة إذا عبروا من ظاهر الشريعة إلى باطنها، عرضت لهم أحوال تدعوهم إلى ترك الظاهر (وهذه الأحوال تخالف في هذا المقام ظاهر الشرع) فاحتاجوا إلى رياضة تبقي العلم يجري مجراه.

أما الخاصة من الخاصة فإن رياضتهم عبارة عن تجريد الشهود من جميع أنواع الكثرات (الكثرات الأسمائية أو ثنوية الشاهد والمشهود) بالسعي لاستقبال أنوار تجلي أحدية الذات، المفنية. فلا يرون تعارضاً بين الأسماء المتضادة كالمنعم والمنتقم أو المعطي والمانع لفناء الكل في عين جمع الذات. وعندها لا يطلب لنفسه عوضاً.

وحيث أن أحوال خاصة الخاصة لا تكون بكسب وسعي، لأنهم الواصلون الذين يقطفون ثمار السعي المتقدم، ويرون تجليات الحق عليهم، فإن التعبير بالرياضة هنا تسامح وتساهل.

فلو اطلعنا على أحوالهم لما شاهدنا للرياضة من أثر. وقد قيل أن مدخل الرياضة عندهم للتلوين الحاصل في أوائل تجليات أنوار الذات والتي يتخللها الاستتار، حين لم يبلغ حد الاستقامة والتمكين في مقام البقاء بعد الفناء!

السماع

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ [8: 23]

نكتة السماع حقيقة الانتباه.

وهو على ثلاث درجات:

سماع العامة ثلاثة أشياء:

إجابة زجر الوعيد ورعاً

وإجابة دعوة الوعد جهداً

وبلوغ مشاهدة المنّة استبصاراً

وسماع الخاصة ثلاثة أشياء:

شهود المقصود في كل رمز

والوقوف على الغاية في كل همس

والخلاص من التلذذ بالتفرق

وسماع خاصة الخاصة سماعاً:

يغسل العلل عن الكشف

ويصل الأبد بالأزل

ويرد النهايات إلى الأول

تعليقات

هداية الله التكوينية سارية في كل الوجود، ولا يسمع نداءها إلا ثلاث فئات، كل فئة بحسبها.

فالعامة يسمعون نداءها في الوعد والوعيد الإلهي الذي يزجرهم ويحثهم، فيتجلّى ذلك في حياتهم بصورة الورع والمجاهدة، حتى يبلغوا مقام مشاهدة المنّة الإلهية التي هي العناية السابقة على كل شيء (من الزجر والوعيد والثواب والورع وغيره).

أما الخاصة فإن سماعهم يكون بشهود الحق في الرموز والإشارات، ومعرفة الغاية من كل ما خفي، وعندها لن يكون لهم لذة بما سواه.

أما الخاصة منهم فإن سماعهم يزيل آفات الكشف (من الوسائط والأسباب والغيرية). فإذا ارتفعت الوسائط والحجب (ومنها حجاب الزمان والمكان) اتصل الأزل بالأبد والآخر بالأول. فيرون آخر مقاماتهم قد تحققت في بدايات سلوكهم.

مرحلة الأبواب

الحزن ـ والخوف ـ والإشفاق

والخشوع ـ والإخبات ـ والزهد

والورع ـ والتبتل

والرجاء ـ والرغبة

إذا وُفق السالك لعبور مرحلة البدايات بعد رفع الموانع وقطع العلائق، تظهر في نفسه هذه الانفعالات (كالحزن والخوف و....) التي هي أبواب الباطن.

الحزن

قال الله تعالى: ﴿تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا﴾ [92/9]

توجّع لفائت أو تأسّف على ممتنع

وهو على ثلاث درجات:

1 – حزن العامة: وهو حزن على التفريط في الخدمة، وعلى التورط في الجفاء وعلى ضياع الأيام

2 – حزن أهل الإرادة: وهو حزن على تعلّق القلب بالتفرّق
وعلى اشتغال النفس عن الشهود
وعلى التسلّي عن الحزن

3 – وليست الخاصة من مقام الحزن في شيء، ولكن الدرجة الثالثة من الحزن هي التحزّن لما يعرض على الخواطر، ولمعارضات القصود والاعتراضات على الأحكام.

تعليقات

المعصية هي الجفاء. ومن أذنب فقد جافى الحق تعالى.

و على التقصير أمر شريف. فمن لم يحزن في حينه فقد قصّر. لهذا يحزن أهل الإرادة على انشغالهم وتسلّيهم عن حينما ينبغي.

وإنما لم يكن للخاصة حزن، لأن مع التفرّق والفقدان، وهم أهل الجمع والوجدان. أجل قد يحزن هؤلاء على غيرهم، كحزن رسول الله(ص) على أمّته، وحزن يعقوب على يوسف(ع).

والعارضات دون الخواطر أمور تعرض، فتمنع الواردات أو تمنع نفوذ الخواطر الرحمانية.

ومعارضات القصود هي ما ينقض العزائم.

والاعتراضات على الأحكام هي أن يخطر لهم خواطر الاختيار على ما اختار الله لهم وحكم (بحكمه التكويني). فيتحزنون لذلك لأنهم لم يتركوا الاختيار مع اختيار الحق.

وقد يقع منهم الاعتراض النفسي على الأحكام الواردة عليهم من الحق، فيتحزنون لما صدر عنهم من سوء الأدب، أو الاعتراض على أحكام العلم عند غلبة الحال في تلويناتهم. فإذا تمكنوا عرفوا صحة العلم الظاهر في طوره وصحة الحال والمعرفة في طورها، فيتحزنون لما فاتهم من التسليم للعلم، وتسرّعهم في الاعتراض على الله.

وهذه ذنوب الأحوال، أكثرها من مواجيد أصحاب التلوين، ولا يأمن من مثلها أرباب التمكين، فليتقوا الله حق تقاته.

الخوف

﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ (50/16)

الخوف هو الانخلاع عن طمأنينة الأمن بمطالعة الخبر

وهو على ثلاث درجات:

1 - الخوف من العقوبة. وهو الخوف الذي يصح به الإيمان وهو خوف العامة. وهو يتولد من تصديق الوعيد وذكر الجناية ومراقبة العاقبة.

2 - خوف المكر في جريان الأنفاس المستغرقة في اليقظة المشوبة بالحلاوة.

3 - وليس في مقام أهل الخصوص وحشة الخوف إلا هيبة الجلال وهي أقصى درجة يُشار إليها في غاية الخوف. وهي هيبة تعارض المكاشف أوقات المناجاة، وتصون المشاهد أحيان المسامرة، وتقصم المعاين بصدمة العزة.

تعليقات

قيل أن الحزن هو على ما فات، والخوف مما هو آت.

والإيمان هو التصديق، ولو لم يصدّق ما خاف.

وكلما كانت الحلاوة الناشئة من الإقبال أتم، كان الخوف من الإعراض أشد.

فخوفهم من أن يكون ما استغرقوا فيه (مع يقظتهم) مكراً إلهياً. وربّ مستدرج بالإحسان إليه.

ووقت المناجاة هو وقت القرب والاقتراب. وفي القرب دلال تعارضه هيبة الجلال، فتصونه من الانبساط حين الاختلاء بالحبيب. والعزة الإلهية تصدم المعاين وتقصمه حين تجلي هيبة أسماء الجلال.

الإشفاق

﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ [52/ 26]

الإشفاق: دوام الحذر مقروناً بالترحم.
فالمشفق على نفسه يحذر الموبقات رحمةً بها.

وهو على ثلاث درجات:

1 - إشفاق على النفس من أن تجمح إلى العناد
وعلى العمل من أن يصير إلى الضياع
وعلى الخليقة لمعرفة أعذارها

2 - إشفاق على الوقت أن يشوبه تفرّق
وعلى القلب أن يزاحمه عارض
وعلى اليقين أن يداخله سبب

3 - إشفاق يصون سعيه عن العجب
ويكفّ صاحبه عن مخاصمة الخلق
ويحمل المريد على حفظ الجد

تعليقات

والوقت هو حضور الله بالواردات والتجليات الداعية إلى الجمع والوحدة.

وأهل اليقين هم أهل التوحيد الذين قطعوا الأسباب بمعرفة السبب الأوحد، وتوكلوا عليه بالانقطاع عن الأسباب.

والذين بلغوا الدرجة الثالثة من الإشفاق يعلمون أن أعمالهم ومساعيهم محض التوفيق. فكيف يعجبون بها وهي ليست منهم. وهم يعلمون أيضاً بأن مخاصمة الخلق مشغلة لهم عن ربهم، فيحافظون على الجد أو الحد بينهم وبين ربهم سبحانه.

الخشوع

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [57/16]

الخشوع: خمود النفس وهمود الطباع لعظيم أو مفزع.

وهو على ثلاث درجات:

1 - التذلل للأمر والاستسلام للحكم والتواضع لنظر الحق

2 - ترقب آفات النفس والعمل على رؤية فضل كل ذي فضل عليك وتنسم نسيم الفناء

3 - حفظ الحرمة عند المكاشفة، وتصفية الوقت من مراءاة الخلق أو تجريد رؤية الفضل.

تعليقات

الخشوع أمر وجداني يدرك معناه كل عاقل سليم الفطرة. يحصل من جراء تجلي العظمة والهيبة، يصاحبه الخمود والهمود في النفس والطباع، فلا تتصرف عنده وفق ما اعتادت عليه.

والدرجة الأولى منه تتجلّى في التعبد للأوامر التشريعية والاستسلام للأحكام التكوينية بعد تعظيم الشرع والقضاء الإلهيين.

وفي الدرجة الثانية يرصد آفاته وعيوبه فيرى قليل ذنبه عظيما وحقير عيوبه جليلا، ويرى فضل الناس عليه كبيرا. لأن المانع من هذه الرؤية كان من رعونة نفسه وادعائه. وقد زال بالخشوع. وهناك حيث همدت طباعه يصبح مستعداً لتنسم ريح التجليات ونسائم الوحدة، التي تحمل معها بشائر الفناء في المعبود.

وفي الدرجة الثالثة يمنعه الخشوع من الشطح عند المكاشفة؛ فلا يخرج عن حد العبودية، ويحافظ على حرمة الربوبية. ونظراً لانكسار نفسه عنده، فإنه لا يهتم بإظهار شؤونها، مهما كانت شريفة. حتى يدرك صاحب الفضل الأوحد بعد أن يتجاوز وهم رؤية الفضل من نفسه، وبعد مرحلة رؤية الفضل من كل ذي فضل.

الإخبات

﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ [34/22]

الإخبات من أوائل مقام الطمأنينة. وهو ورود المأمن من الرجوع والتردد.

وهو على ثلاث درجات:

الأول: أن تستولي العصمة على الشهوة
وتستدرك الإرادةُ الغفلة
ويغلب الطلب السلوة

الثانية: أن لا ينقض إرادته سبب
ولا يوحش قلبه عارض
ولا تقطع الطريق عليه فتنة

الثالثة: أن يستوي عنده المدح والذم
وتدوم لائمته لنفسه
ويعمى عن نقصان الخلق عن درجته

تعليقات

في مثل هذا المقام تسكن النفس إلى المطلوب فتأمن من التردد أو التراجع. حيث يلقي الحق تعالى عليه من الطمأنينة ما يجعله مستقراً ثابتا في سيره.

ومن علاماته في الدرجة الأولى أن يتغلب على شهواته ويسيطر عليها، ولا تعرض عليه الغفلة لقوة تعلقه بالحق. فهو لا يريد التسلّي عنه بغيره.

وفي الدرجة الثانية تقوى إرادته للحق وطلبه له إلى الدرجة التي تعجز الاسباب عن نقضها من شدة تعلق قلبه بالسبب الأوحد، فلا يشغل قلبه عارض يقدر على جعله مستوحشاً من الحق.

فالمريد لا تقطعه أسباب الرزق عن طلب الرزق من الرزاق المتين مهما اشتد فقره وضاقت معيشته، لأنه استجمع القلب على طلب الحق والرزق ليس الا منه.

وفي الدرجة الثالثة يرى كل الشر من نفسه، فلا يفرحه مدح ولا يؤلمه ذم. وهو على هذا غير ناظر إلى الدرجات. فكيف يقارن نفسه بغيره؟!

الزهد

﴿بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [11.86]

الزهد إسقاط الرغبة بالأشياء بشكلٍ كامل

وهو للعامة قربة

وللمريد ضرورة

وللخاصة خسّة

وهو على ثلاث درجات:

الأولى: الزهد في الشبهة بعد ترك الحرام بالحذر من العتبى، والأنفة من المنقصة، وكراهة مشاركة الفسّاق.

الثانية: الزهد في الفضول، وما زاد عن الحاجة، باغتنام التفرغ إلى عمارة الوقت، وحسم الجأش والتحلّي بحلية الأنبياء والصديقين.

والثالثة: الزهد في الزهد وهو بثلاثة أشياء:

باستحقار ما زهدت فيه

واستواء الحالات عندك

والذهاب عن شهود الاكتساب ناظراً إلى وادي الحقائق

تعليقات

الزهد إنما كان قربة للعامة: لأنهم يتقربون به إلى الله للثواب.

وضرورةً للمريد لأنه قد جمع قلبه مع الله بتوحيد الهمة والرغبة، فلو لم يزهد في الدنيا لتفرق عنه سبحانه. وهو خسّة للخاصة لأنهم لا يرون لغير الله قدراً حتى يزهدوا فيه.

وزهد الدرجة الأولى يكون في الشبهات حذراً من العقاب أو الحساب. فيأنف ويترفع عن كل ما يوجب النقص عند الله. ويكره أن يشبه الفسّاق المتكالبين على الدنيا وحطامها.

وفي الدرجة الثانية يصبح معيار الزهد كل ما زاد عن قوت يومه وحاجته الضرورية. من أجل اكتساب المزيد من الوقت للتكامل الحقيقي، وقطع الاضطراب والجأش عن القلب بتقليل شواغله. والتشبه بأولياء الله تعالى، عسى أن يكون معهم.

وفي الدرجة الثالثة بعد أن يسقط موضوع الزهد عنده (وهو هذا الحطام والاعتبار) لا يبقى أي معنى للزهد. فتستوي الحالات عنده لأنه خرج من المقارنة بين الآجل والعاجل. وهناك لن يرى فعله مؤثراً في تحصيل أي شيء.

فكيف يزهد في لا شيء؟ ومن هو حتى يزهد؟ وما معنى زهده وسائر مقاماته في شهوده؟

الورع

قال الله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [74: 4]

الورع توقّ مستقصى على حذر أو تحرّج على تعظيم
وهو آخر مقام الزهد للعامة وأول مقام الزهد للمريدين

وهو على ثلاث درجات:

الأولى: تجنّب القبائح لصون النفس، وتوفير الحسنات وصيانة الإيمان

الثانية: حفظ الحدود في ما لا بأس به، إبقاء على الصيانة والتقوى، وصعوداً عن الدناءة، وتخلصاً من اقتحام الحدود

الثالثة: الورع عن كل داعية تدعو إلى شتات الوقت، والتعلق بالتفرق، وعارض يعارض حال الجمع

تعليقات

منشأ الورع قد يكون الحذر من غضب الله أو تعظيمه سبحانه. وكلاهما يدعوان إلى اجتناب الحرام والابتعاد عن الشبهات. وفيه نوع تضييق على النفس. والورع هو بلوغ الدرجة القصوى من التقوى، يظهر في الدرجة الأولى من خلال تجنب كل ما قبُح من أجل الحفاظ على النفس من الانزلاق نحو الشهوات وزيادة الحسنات بالابتعاد عن السيئات وصيانة للإيمان لأن ارتكاب القبائح يؤدي إلى تقوية الكفر في القلب قال الله تعالى: ﴿ثم كان عاقبة الذين أساؤوا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون﴾.

وفي الدرجة الثانية يتم اجتناب الشبهات التي يراها أكثر الناس جائزة لا بأس بها من أجل الحفاظ على التقوى وتدعيمها، والابتعاد عن الدناءة والنزول إلى المحقرات والسخائف، و عدم الوقوع في الحرام.

لكنه في الدرجة الثالثة يترقى ليصبح ابتعاداً عما يمكن أن يفرّق قلبه عن الله ويشتت سعيه. لأن غايته أن يجتمع مع الله. وشهود الوقت والمقام والحضور كلها عوارض تعارض حال الجمع.

التبتّل

﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾[73/ 8]

التبتّل هو الانقطاع بالكلية. وقوله "إليه" دعوة إلى التجريد المحض.

وهو على ثلاث درجات:

الأولى: تجريد الانقطاع عن الحظوظ واللحوظ إلى العالم
خوفاً أو رجاءً أو مبالاة بحال بحسم الرجاء بالرضا،
وقطع الخوف بالتسليم، ورفض المبالاة بشهود الحقيقة.

الثانية: تجريد الانقطاع عن التعريج على النفس بمجانبة الهوى، وتنسم
روح الأنس، وشيم برق الكشف.

الثالثة: تجريد الانقطاع إلى السبق، بتصحيح الاستقامة
والاستغراق في قصد الوصول، والنظر إلى أوائل الجمع.

تعليقات

المتبتّل إلى الله الذي جرّد نفسه عن كل ما سوى الحق تعالى، والتجريد المحض هو أن يجرده الله عن نفسه وعن غيره.

من رضي عن الله لم ينظر إلى الدنيا وما فيها خوفاً أو طمعاً أو اعتناءً، ومن أسلم لله لم يخف أحداً سواه، أو يبالي به، لأنه شاهد حقيقة الكل، وهي أن لا مؤثر في الوجود إلا الله. فهذا هو الانقطاع عن الناس.

والدرجة الثانية هي الانقطاع عن النفس وعن الميل إليها، وذلك برفض الهوى ومجانبته. فيتنسّم روح الأنس بالله، بعد أن خلا قلبه مما سواه. وهناك سيلحظ بوارق الكشف، كما يلاحظ الزارع برق السحاب المؤذن بالمطر.

والثالثة التجرّد عن طلب المقامات والمسابقة فيها، بتصحيح الاستقامة والاستغراق في الغاية (لا الدرجات والطريق)، والنظر إلى أنوار الجمع المفنية لما سواه. وأوائل الجمع: إشراقات سبحات الوجه الباقي.

الرجاء

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ﴾ [33: 21]

الرجاء أضعف منازل المريدين، لأنه معارضة من وجه واعتراض من وجه. وهو وقوع في الرعونة (في مذهب هذه الطائفة) إلا ما فيه من فائدة واحدة، بها نطق القرآن والسنّة، ودخل في مسالك المحققين.

وتلك الفائدة هي كونه يخفف حرارة الخوف ويخمدها، حتى لا يؤدي إلى اليأس.

وهو على ثلاث درجات:

الأولى: رجاء يبعث العامل على الاجتهاد، ويولّد التلذذ بالخدمة، ويوقظ الطباع لترك المناهي.

الثانية: رجاء أهل الرياضات أن يبلغوا موقفاً تصفو فيه هممهم برفض الملذّات، ولزوم شروط العلم، واستقصاء حدود الحمية والأنفة.

الثالثة: رجاء أهل القلوب، وهو رجاء لقاء الحق عز وجل، الباعث على الاشتياق، المنغّص للعيش، المزهد في الخلق.

تعليقات

أما وجه المعارضة فهو أن الحق تعالى مالكه، وللمالك أن يتصرّف في ملكه بما يشاء. فإذا تعلق العبد بالرجاء فقد عارضه بتوقع ما عسى أن لا يريد إعطاءه.

أما وجه الاعتراض فهو أن الراجي يتوهم "أن الله غني عن تعذيب عباده، فعليه أن يعفو عنهم". فكأنه يعترض عليه في حكمه. لكن العبد يعلم أن الله يريده أن يرجوه، فلا يقطع رجاءه منه امتثالاً وعبودية. ففي الرجاء رعونة تزول بالالتفات إلى طلب الحق تعالى وأمره. وفيه فائدة مهمة وهي أنه يبرد حرارة الخوف الذي قد يجر إلى اليأس، فيحقق الاعتدال والتوازن.

وفي الدرجة الثانية، يبلغ رجاء أهل الرياضة مبلغاً يرفضون فيه المشتهيات واللذائذ المتفرقة من أجل صفاء الهمة الباعثة على السير إلى الله، وملازمة شروط الشريعة ومراعاة الحدود والحرمات بأقصى درجة.

أما أصحاب القلوب الصافية فإن رجاءهم يتعلق بالله ولقائه، فينبعث فيهم الشوق إليه وينغص عليهم عيشهم في الدنيا، ويغنيهم عن الناس.

الرغبة

﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [90/21]

الرغبة سلوك على تحقيق، والرجاء طمع يحتاج إلى تحقيق. لهذا، الرغبة فوق الرجاء وهي ألحق بالحقيقة منه. فنهاية الرجاء بداية الرغبة.

وهي على ثلاث درجات:

الأولى: رغبة أهل الخبر: تتولد من العلم، فتبعث على الاجتهاد المنوط بالشهود، وتصون السالك عن وهن الخمول والفتَرة، وتمنع صاحبها من الرجوع إلى غثاثة الرخص.

الثانية: رغبة أهل الحال، وهي رغبة لا تبقي من المجهود إلا مبذولاً، ولا تدع للهمة ذبولاً، ولا تترك غير المقصود مأمولاً.

الثالثة: رغبة أهل الشهود: وهي تشرّف تصحبه تقيّة، وتحمله همة نقيّة، ولا تبقى معه من التفرق بقيّة.

تعليقات

الرجاء طمع والطمع لا يكون إلا مع الفقد. بينما الرغبة في الشيء تكون بعد تحقق وقوعه.

أما رغبة أهل الخبر الذين آمنوا بالغيب بواسطة الكتاب والسنّة، فإن إيمانهم يبعثهم على الاجتهاد الذي ينبع من شهود الحقيقة لا من الغيبة عنها. فلا كسل ولا تعذّر بالرخص الواهية. وإذا أخذوا بها، فذلك لأن الله تعالى يحب أن يؤخذ برخصه كما يؤخذ بعزائمه (الحديث).

ورغبة أصحاب الأحوال المعنوية الناشئة من تجليات الأسماء الإلهية ووارداتها تستنفد كل طاقة السالك.

أما أهل الشهود، فإن رغبتهم تجعلهم حذرين من الغير مخافة أن يقطعهم عنه سبحانه. وتكون هممهم نقية من دنس الأغيار، ولهذا لا تبقى معهم من التفرّق بقية.

مرحلة المعاملات

الرعاية والمراقبة والحرمة
والإخلاص والتهذيب
والاستقامة والتوكل
والتفويض والثقة
والتسليم

وإذا انفتحت أبواب الغيب على العبد بإشراق نور الحق على القلب وانعكاسه على النفس: يطّلع القلب على الحضرة الإلهية بانفتاح عين البصيرة. فإذا تمرّنت النفس بالطاعة، يأخذ القلب في المعاملة مع الحق لقوة اليقين وظهور آثار الأنس، فتأخذ النفس في الاطمئنان ومرافقة القلب في الترقي إلى مقامه واكتساب خواصه. وأول ما يبدأ به من المعاملات:

الرعاية

﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [57، 27]

الرعاية صونٌ بالعناية.

وهي على ثلاث درجات:

الأولى: رعاية الأعمال: فإن توفيرها بالحفظ والاستكثار يقتضي تحقيرها، والقيام بها من غير نظر إليها، وإجراؤها مجرى العلم (لا على التزيّن).

الثانية: رعاية الأحوال: فهي أن يعدّ الاجتهاد رياء، والنَفَس تشبّعاً، والحال ادعاء.

وأما رعاية الأوقات: فأن يقف مع خطواته، ثم أن يغيب عنها بالصفاء من رسمه، ثم أن يذهب عن شهود صفائه.

تعليقات

من رأى كثير طاعته قليلا وعظيم عمله حقيرا جد في العمل وأكثر من الطاعة. ومنه أنه ينبغي عدم النظر إليه إلا من أجل تصحيحه، كل ذلك من أجل أن يطابق ظاهر الشرع خالصاً من الرياء والتظاهر.

وفي الأحوال ينبغي أن يواظب على اتهام نفسه لكي لا تعجب بثمار أعماله وسلوكه (وهي الأحوال) ويعتبر أن نَفَسه وتروّحه وقت التجلي تكلّف منه. والحاصل أنه إذا أراد أن يصون حاله، فعليه أن يتهمه ويسيء الظن بنفسه.

وإذا أراد رعاية وقته مع الله، فعليه أن يقف عند سيره ليصححه، ثم يغيب عنه بغض النظر إليه. وذلك بالصفاء من تعلّقه بالنفس، فيراه منّة من الله وسابقة عناية منه تعالى. ثم يغيب عن هذه الرؤية والشهود. فإنْ خطر بقلبه أنّه قد صفا عن رسمه وشهد صفاءه، كان ذلك الشهود أيضاً من نفسه.

المراقبة

قال الله تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ﴾ [59/44]

المراقبة دوام ملاحظة المقصود.

وهي على ثلاث درجات:

الأولى: مراقبة الحق في السير إليه على الدوام، بين تعظيم مذهل واقتراب حامل، وسرور باعث.

الثانية: مراقبة نظر الحق إليك، برفض المعارضة، وبالإعراض عن الاعتراض، ونفض رعونة التعرض.

الثالثة: مراقبة الأزل بمطالعة عين السبق استقبالاً لعلم التوحيد، ومراقبة ظهور إشارات الأزل على أحايين الأبد، ومراقبة الخلاص من ربطة المراقبة.

تعليقات

المراقبة من أفعال القلب، وهي دوام ملاحظة جناب الحق بالقلب. ولا تخلو مراقبة المريدين السائرين إلى الله من أمور ثلاثة في آن واحد:

تعظيم للحق يُذهل عن النفس، واقتراب في غاية الدنو يحمله على التعظيم البالغ، وسرور يبعثه على حث السير.

أما الدرجة الثانية من المراقبة فهي فوق مراقبة الحق التي هي دوام حضور القلب معه. بل هي مداومة شهود نظر الحق إليك. وهي أن تشهد أنه رقيبك وشاهدك. فلا تعارضه بفعلك، ولا تعترض عليه في حكمه وقضائه، وتنفض يدك من رعونة التعرض له بوجودك (وهو رفض الأنا، وإن كانت في المراقبة) وهذه المراقبة الشهودية بمعنى الاستعداد للفناء، لا تتيسر إلا بنور من التجلي.

والدرجة الثالثة من مراقبة الحق بشهود معنى الأزل، بأن يطّلع على حقيقة سابقية الحق للكل، ليستقبل بهذا الشهود علم التوحيد الذاتي وعلاماته.

وللأزل إشارات تظهر على مر الزمان حتى الأبد، ومن شهد إشارات الأزل على الأبد إتصل عنده شهود الأزل بالأبد واندك الكل في الكل فصار كالنقطة الواحدة قال الله تعالى وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر. وهناك يفقد عينه المتقيدة بالزمان في شهود الحق المفني لما سواه، وذلك هو الخلاص من قيود المراقبة.

الحرمة

قال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾[30/22]

الحرمة هي التحرّج عن المخالفات والمجاسرات.

وهي على ثلاث درجات:

الأولى: تعظيم الأمر والنهي: لا خوفاً من العقوبة، فيكون خصومةً للنفس. ولا طلباً للمثوبة، فيكون عبداً للأجرة. ولا شاهداً للجد، فيكون متديناً بالمراءاة. فإن هذه الأوصاف كلها شعب من عبادة النفس.

الثانية: إجراء الخبر على ظاهره، وهو أن يبقي أعلام التوحيد العامة الخبرية على ظاهرها: لا يتحمّل البحث عنها تعسفاً، ولا يتكلف لها تأويلاً، ولا يتجاوز ظواهرها تمثيلاً، ولا يدّعي عليها إدراكاً أو توهماً.

الثالثة: صيانة الانبساط من أن تشوبه جرأة، وصيانة السرور من أن يداخله أمن، وصيانة الشهود من أن يعارضه سبب.

تعليقات

تعظيم الأمر بامتثاله وتطبيقه على أنه من الله تعالى. فلا يطلب أجراً أو مثوبة ولا يتباهى في نفسه بسعيه وعمله. وإلا كان مخالفاً لحق التعظيم، وهو العبودية.

وقد ظهر في العالم الإسلامي ولا زال أقوام يفسرون الخبر (وهو النص الديني) حسب أهوائهم وعقولهم. وعندما لا يجدون له معنى ظاهراً يؤولونه بصرفه عن ظاهره، تكلّفا. وهم ليسوا من الراسخين في العلم، فيمثّلون له بمعاني أخرى قياساً واستحساناً من عند أنفسهم. فهؤلاء قد ابتعدوا عن الشريعة وروحها ولم يحترموا حدودها. بينما نجد من العلماء الشامخين من وصل في آخر مراحل عمره وعطائه العلمي إلى حالة التعبد المطلق وأدرك أن أعظم شيء هو عدم تخطي النص الديني.

إن التعامل مع الخبر مبحوث في علم الأصول بصورة وافية. وفيه مجموعة من القواعد المهمة التي تراعي حرمته وحدودها. فمن أراد الاطلاع فليراجع.

والدرجة الثالثة من الحرمة هي لأهل المشاهدة الذين يجب عليهم صيانة انبساطهم واسترسالهم مع الحق من أن يشوبه جرأة ورعونة، وسرورهم من أن يداخله أمن من مكر الله، وشهودهم من أن يعارضه شرك خفي ورؤية لغير السبب الأوحد.

الإخلاص

﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [39: 3]

الإخلاص: تصفية العمل من كل شوب.

وهو على ثلاث درجات:

الأولى: إخراج رؤية العمل من العمل، والخلاص من طلب العوض على العمل، والنزول من الرضا بالعمل.

الثانية: الخجل من العمل مع بذل المجهود، وتوفير الجهد بالاحتماء من الشهود، ورؤية العمل في نور التوفيق من عين الجود.

الثالثة: إخلاص العمل بالخلاص من العمل، تدعه يسير مسار العلم، وتسير أنت مشاهداً للحكم، حرّاً من رق الرسم.

تعليقات

الإخلاص يقتضي أن لا يرى عمله أثناء العمل، بل يراه امتثالاً. فالحق تعالى هو المشهود في العمل لا نفس العمل بما هو عمل صادر منه. وبهذا يخلص من طلب الأجر والثواب والرضا بفعله وسعيه. وهو مقتضى العبودية.

وفي الدرجة الثانية: يخجل من عمله، لأنه مهما بذل من مجهود فإنه لا يليق بمحضر الربوبية. والطريق إلى ذلك ببذل أقصى المجهود، فإنه أفضل ما يدل على نقصان العمل. لكن شهود الحقيقة قد يعارضه، لأن الحقيقة تجعله لا يرى لنفسه عملاً، وهذا ما يقلل العمل بنظره، ويدعوه إلى التقليل من البذل. فعليه أن يحتمي من هذا الشهود بالاستعاذة بالله. وأهل التوفيق يعلمون أن النظر إلى الحقيقة يبعث في النفس جداً واجتهاداً (غالباً ما لا يعلمون سببه).

ولهذا فإن الإخلاص في الدرجة الثالثة يقتضي ترك العمل يجري مجرى ظاهر الشريعة، وأنت تسير في وادي الطريقة تشاهد حكمه تعالى فيك كيف خلّى بينك وبين العمل وأجرى الخير والطاعة على يديك: ﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾. فلم تعد مشاهداً للعمل على أنه صادر منك، بل من مصدر آخر خارج رسم الحدود والقيود.

التهذيب

﴿فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ [6/76]

التهذيب محنة أهل البدايات. وهو شريعة من شرائع الرياضة.

وهو على ثلاث درجات:

الأولى: تهذيب الخدمة، حتى لا تخالجها جهالة، ولا تسوقها عادة ولا تقف عندها همّة.

الثانية: تهذيب الحال حتى لا يجنح إلى علم، ولا يخضع لرسم ولا يلتفت إلى حظ.

الثالثة: تهذيب القصد، بتصفيته من ذل الإكراه، وحفظه من مرض الفتور، ونصرته على منازعات العلم.

تعليقات

عرّف التهذيب بآثاره ودرجاته. لكنه عبارة عن التصفية من الشوائب. وشوائب الخدمة والعمل هي: الجهل والسفاهة وتحوّل العمل إلى عادة وقناعة. فإن العبد إذا وقف بهمته عند العمل استحسنه ولم ير تقصيره. وفي الحديث عن أمير المؤمنين(ع): "آفة الرياضة العادة".

وشوائب الأحوال المعنوية والواردات القلبية: أن يعود صاحبها عنها ويقصر نظره إلى الظواهر والقشور. فالمطلوب رعاية الظاهر لا النظر إليه والاقتصار عليه، وإلا غُلب على الحال وحرم صاحبه منه. ومن الشوائب هنا طلب حظوظ النفس سواء في الثواب أو المقام. وقد علمتَ أن بقاء النفس والأنا أصل كل حجاب واحتجاب.

والدرجة الثالثة للتهذيب تصفية النية لتصبح جميع أعماله نابعة من الحب. فإن من شوائب النية: إكراه النفس والكسل، وهما مخالفان للحب. فمن أحب، عمل رغبةً وشوقاً وجدّ في السعي دون تعب.

ولظاهر الشريعة (العلم) مقتضيات تنازع النية الصافية. فعليه أن ينتصر لنيّته. فقد ورد الكثير من النصوص مما يفهم منه الحث على العبادة رغبة بالثواب أو خوفاً من العقاب. وهذه النصوص قد تشكل في النفس توجهاً نحو الحظوظ (الآجلة والعاجلة). والنية الصافية تقتضي العبادة محبة. فيحصل التنازع بينهما.

الاستقامة

قال الله تعالى: ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾ [6/41]

الاستقامة روح تحيا بها الأحوال، كما تربو للعامة عليها الأعمال، وهي برزخ بين أوهاد التفرّق وروابي الجمع.

وهي على ثلاث درجات:

الأولى: الاستقامة على الاجتهاد في الاقتصاد دون تعدي حدود العلم أو تجاوز حد الإخلاص أو مخالفة نهج السنة.

والثانية: استقامة الأحوال: وهي شهود الحقيقة لا كسباً، ورفض الادعاء لا علماً، والبقاء مع نور اليقظة لا تحفّظاً.

الثالثة: استقامة بترك رؤية الاستقامة، وبالغيبة عن تطلّب الاستقامة بشهود إقامة الحق وتقويمه (عز اسمه).

تعليقات

عرّف الاستقامة ببعض آثارها وعوّل على معرفة درجاتها. وقيل أن الاستقامة هي استواء القصد في السلوك إلى الله. وهذا الاستواء يعبّر عن ثبات لا يحتاج إلى مجاهدة أو مقاومة. فالاستقامة بعد المقاومة. أما موقع بروزها فهو بين أوهاد التفرق (رؤية الكثرات) وروابي الجمع (الوحدة)، أي عند انتقال السالك من الغير إلى الحق.

والدرجة الأولى منها هي الثبات على رعاية الاعتدال والاقتصاد اللذين يحددهما الشرع الأنور سواء في العمل أو النية أو البرنامج. فلا إفراط ولا تفريط.

والثانية في حالاته الباطنية حيث يحرص على نفي رؤية الكسب والسعي في الشهود، ورفض نسبة الأشياء إلى نفسه بالحقيقة لا على مجرد العلم بذلك. وإنما يبقى مع نور اليقظة بفضل نور الحقيقة لا لتحفّظه واحترازه.

والثالثة: تشير إلى الواصلين الذين بلغوا المقصد وشهدوا المقصود، فذهلوا عن الاستقامة ودورهم فيها، لشهود فعل الحق المقيم لها.

التـوكل

قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [5/23]

التوكل: إيكال الأمر كله إلى مالكه، والتعويل على وكالته. وهو من أصعب منازل العامة عليهم، وأوهى السبل عند الخاصة. لأن الحق تعالى قد وكّل الأمور كلها إلى نفسه، وآيس العالَم من ملك شيء منها.

وهو على ثلاث درجات كلها تسير مسير العامة:

الأولى: التوكل مع الطلب، والتعامل مع الأسباب بنية إشغال النفس ونفع الخلق وترك الادعاء.

الثانية: التوكل مع إسقاط الطلب وغض العين عن الأسباب، اجتهاداً في تصحيح التوكل، وقمع تشرّف النفس، وتفرّغاً إلى حفظ الواجبات.

الثالثة: التوكل مع معرفة التوكل توجهاً نحو الخلاص من علة التوكل. وهو أن يعلم أن ملك الحق تعالى للأشياء ملكُ عزة لا يشاركه فيها مشارك. فيكل شراكته إليه. فإن من ضرورة العبودية أن يعلم العبدُ أن الحق هو مالك الأشياء وحده.

تعليقات

إنما كان التوكل أصعب منازل العامة لأنهم احتجبوا بالأسباب بعد أن رأوا تأثيرها في حياتهم، فصار اعتمادهم واتكالهم عليها أساساً. والتوكل على الله تعالى يكون بإسقاط هذا التعويل والاعتماد الذي شغل حياتهم.

وأما الخاصة فإنهم قد علموا أن الأمر كله لله. وحيث لم تكن أمورهم بأيديهم، بل الملك بأسره له سبحانه، فأي شيء يكلونه إلى الله؟! وكأنهم من هذه الجهة يمتثلون لأمر قد فرغوا منه.

والدرجة الأولى من التوكل على الله (في أمر الرزق والمعاش مثلاً) تقتضي هذا الشعور والحضور مع السعي والتعامل مع الأسباب كما هو مطلوب شرعاً وعقلاًولكن بنيّة إشغال النفس كي لا تشتغل بك (وخصوصاً إذا كنت شاباً). فهي حركة اعتقادية يتعامل فيها المتوكل مع الله بحسن الظن بأنه تعالى يفعل ما يريد، وبيده كل شيء، ولن يكون إلا ما شاء وأنه مأمور بالسعي لأجل إيصال النفع إلى خلق الله وعياله، وخوفاً من الفتنة على نفسه من أن يظهر بمظهر الزاهد بين الناس فينجذبوا إليه ويقبلوا عليه. وذلك إذا رأوه مكتفيا وهو لا يسعى في طلب الرزق.

وإنما أمر الله عباده بالسعي لإصلاح العالم والجهاد في سبيله لا طلب المعاش وبذل الجهد لنيل المعاش. ووعد المجاهدين في سبيله بالكفاية.

والمتوكل في الدرجة الأولى لا يرى لسعيه تأثيراً، وإنما يتعامل معه على أساس التكليف والحكمة الإلهية في تربية عباده لكي يستعد للانتقال إلى الدرجة الثانية.

وفيها تتحول حياة السالك إلى مسير أخروي، لا يطلب فيه دنيا ولا يسعى لها. وهذا الأمر لن يتم إلا إذا سلك طريق الجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمته تعالى، دون أن يرى لجهاده تأثيراً؛ ﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾. ويعدّه محض المنّة

والتوفيق من الله سبحانه. وفي هذا المسير سيرى أن أي نقص دنيوي أو معيشي يصيبه إنما يعود إلى طبيعة الجهاد ومقتضياته ولو شاء الله تعالى لفتح له خزائن السماوات يتزود منها بما يشاء. لكنه عز وجل أراد لعباده شرف الآخرة (لا الدنيا) وأحبّ أن يُظهروا قدرته في الحياة بانتصارهم على أهل الدنيا والقدرة والثروات وهم فقراء. والمجاهد الحق يعلم كيف يؤثّر السعي للرزق على أدائه للواجبات. لهذا فإنه يحذر منه لأجل المحافظة على الطاعات والقيام بها على أحسن وجه.

وفي الدرجة الثالثة يظهر السالك بصورة المتوكل رغم علمه بعلّته. فإن في التوكل ادعاء الملك مع إيكاله إلى الله. والملك كله لله، لا شريك له فيه. فلهذا يكون التوكل مجرد صورة، والباطن غيره.

التفويض

﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [40/44]

التفويض ألطف إشارة وأوسع معنى من التوكل، فإن التوكل بعد وقوع السبب والتفويض قبل وقوعه وبعده، وهو عين الاستسلام والتوكل شعبة منه.

وهو على ثلاث درجات:

الأولى: أن يعلم أن العبد لا يملك قبل عمله استطاعةً، فلا يأمن من مكر، ولا ييأس من معونة، ولا يعوّل على نيّة.

الثانية: معاينة الاضطرار، فلا يرى عملاً منجياً، ولا ذنباً مهلكاً، ولا سبباً مؤثراً.

الثالثة: شهودك انفراد الحق بملك الحركة والسكون، والقبض والبسط ومعرفته بتصريف التفرقة والجمع.

تعليقات

التفويض ترك التعرض لمن له الأمر بتخليته وشأنه وعدم التصرف فيما ليس له. وهو نوع براءة من الحول والقوة وترك الأمر لله دون أن يرى لنفسه منه شيئاً. فيقيم الحقُ مقامه في التصرف. بخلاف التوكل، فإنه يقتضي أن يقيم المتوكل وكيله مقام نفسه في مصالحه لا في أصل الأمر وأساس الحول والقوة. والتوكل لا يكون إلا بعد وقوع الأمر وحصوله، بخلاف التفويض الذي يسبق الحدث أو يكون بعده. ولهذا كان التفويض عين الاستسلام.

ولا ننسى أن التفويض أمر قلبي، ويبقى ميزان الأعمال هو الشرع الأنور ومقتضيات العقل. لهذا فإن آثاره في الدرجة الأولى كلها قلبية: كعدم الأمن من مكر الله، وعدم اليأس من نصرته، وعدم التعويل على صدق نيته وسريرته. ومردّ ذلك كلّه إلى أن الله تعالى يحول بين المرء وقلبه، فلا شك بأنه يحول بين المرء وفعله. وإذا كان وجود العبد عبارة عن خلق مستمر في كل آن (كما هو حال الضوء في المصباح)، فلو انقطع الفيض لعُدم وزال. فكيف لا يكون عمله وتصرفه محض عطاء وموهبة: ﴿والله خلقكم وما تعملون﴾. وعليه فكيف يأمن من نفسه من أن تنقلب وتتحول إلى الشر؟!

وفي الدرجة الثانية يعاين عجزه وضعفه، فلا يرى لغير الله تأثيراً، ويسقط عمله من يده، فلا يراه منجياً أو مسبباً لشيء.

وفي الدرجة الثالثة يتبدل اليقين السابق إلى شهود. فهو سبحانه الهادي من يشاء إلى عين الجمع والوحدة، والمضل لمن يشاء إلى الاحتجاب بالتفرقة. فهو المتفرد في كل شيء.

الثقة

﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ [28: 7]

الثقة سواد عين التوكل، ونقطة دائرة التفويض، وسويداء قلب التسليم.

وهي على ثلاث درجات:

الأولى: درجة اليأس من مقاومة الأحكام، ليقعد عن منازعة القسمة ويتخلّص من وقاحة الإقدام.

الثانية: درجة الأمن من فوت المقدور وانتقاص المسطور، فيظفر بروح الرضا، وإلا فبعين اليقين، وإلا فبظلف الصبر.

الثالثة: معاينة أزلية الحق ليتخلّص من مِحَن القصود، وتكاليف الاحترازات، والتعريج على الوسائل.

تعليقات

الثقة بالنسبة للتوكل والتفويض والتسليم بمنزلة الروح للبدن.

والمقصود من الحكم والأحكام عند هذه الطائفة قضاء الله وتدبيره. فمن وثق بالله يئس من مقابلة تدبيره وتغيير قسمته، فلا يقدم على شيء انطلاقاً من أنه سيؤثر، فإنها وقاحة. وفي الحديث القدسي: "يا ابن آدم أنت تريد وأنا أريد، ولا يكون إلا ما أريد".

والدرجة الثانية ثقة يأمن معها من فوات المقدّر والمكتوب، لأن الله متفرّد في تدبير العالم، فلا ينازعه شيء. وتكون النتيجة نيل روح الرضا. وإن لم ينل ذلك فله اليقين، وإلا نال شظف الصبر ومرارته.

والدرجة الثالثة شهود تجلّي الحق بصور الأعيان الثابتة في الحضرة العلمية. فيتحقق من أن كل ما يجري في الأكوان هو ظهور ما في الاستعدادات. فيتخلص من محنة الطلب وآلامه، وشدة الاحتراز والاحتياط، والاعتماد على الوسائط. فأثر هذا الشهود راحة القلب وطمأنينته.

التسليم

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (4/65)

وفي التسليم والثقة والتفويض ما في التوكل من الاعتلال. وهو من أعلى درجات سبل العامة.

وهو على ثلاث درجات:

الأولى: التسليم لما يزاحم العقول، مما يشق على الأوهام؛ والإذعان لما يغالب القياس في سير الدول والأوضاع وتقسيم الأرزاق؛ والاستجابة لما يفزع المريد من ركوب الأهوال.

الثانية: تسليم العلم إلى الحال، والقصد إلى الكشف، والرسم إلى الحقيقة.

الثالثة: تسليم ما دون الحق إلى الحق، مع السلامة من رؤية التسليم بمعاينة تسليم الحق إياك إليه.

تعليقات

التسليم لله أمر ندركه بالوجدان. والعلّة التي فيه هي أن ننسب تسليمنا إلى ذواتنا، قبل التسليم وأثناءه. لكن العلّة فيه أقل من غيره.

والعقول المقيّدة لا تقبل للوهلة الأولى ما خفي عليها، لتقيّدها بالأوهام. فأصحابها يرفضون ما يحدث لأنه يخالف قواعد تفكيرهم وتحليلهم. ولهذا فإنهم يفزعون من ركوب الأهوال والمخاطرة بالأنفس في الجهاد والمواجهة.

فالتسليم في الدرجة الأولى يقتضي الإذعان للحكم الإلهي في عالمي التكوين والتشريع. فلا اعتراض ولا حرج مما قضى الله وقدّر، ولا رفض لما أمر أو نهى.

وفي الدرجة الثانية، وعندما يحصل نوع من التعارض بين الظاهر والباطن، بين السلوك العملي والحالات القلبية، عليه أن لا يعارض بظاهر الشرع باطنه بل يترك العلم يجري مجراه، ويسلّم للحال، لأنه مفتاح الكشف والشهود. والقصود والرسوم تشير إلى بقاء النفس والأنا. فالتسليم هنا يكون في تسليمها كلها للمقصود الحاصل بمقتضى الكشف والحقيقة التي إذا تجلّت أفنت ما سواها.

وإذا سلّم رسمه إلى الحق، ينفتح عليه باب الفناء في الله، فيشهد أن الرسوم والحدود كلها فانية في الحق، مع سلامته من رؤية هذا المقام والاستغراق فيه لأن في الرؤية بقاء النفس. وكل ذلك بمعاينة التوحيد الأفعالي وتجلّيه على قلب العبد، بقوله: ﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾. فإن الفعل والتأثير والتسليم كله لله. فهو سبحانه الذي سلّم الأكوان لنفسه.

مرحلة الأخلاق

الصبر والرضا والشكر

والحياء والصدق والإيثار

والخلق والتواضع

والفتوة والانبساط

الأخـلاق هـي ملكـات في النفس تـصـدر معـهـا الأفـعـال بلا رويــة. وهـي مـواريـث المـعـامـلات. فـإنّ المـواظبـة عـلـى المـعـامـلات تـؤدي إلى ظـهـور هـيـئات راسـخـة في الـنـفـس، تـسـهّـل عـلـيـهـا صـدور الـفـضـائـل والخـيرات وسـلـوك الـطـريـقـة.

الصبر

قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [16/127]

الصبر حبس النفس على جزع كامن عن الشكوى.

وهو أيضاً من أصعب المنازل على العامة وأوحشها في طريق المحبة وأنكرها في طريق التوحيد.

وهو على ثلاث درجات:

الأولى: الصبر عن المعصية بمطالعة الوعيد، إبقاءً على الإيمان وحذراً من الجزاء وأحسن منها الصبر عن المعصية حياءً.

الثانية: الصبر على الطاعة بالمحافظة عليها دواماً، وبرعايتها إخلاصاً وبتحسينها علماً.

الثالثة: الصبر في البلاء بملاحظة حسن الجزاء، وانتظار الفرج، وتهوين البلية بعدّ أيادي المنن وتذكر سوالف النعم.

وفي هذه الدرجات الثلاث من الصبر نزل قوله: ﴿اصبروا وصابروا ورابطوا﴾ في البلاء وعن المعصية وعلى الطاعة.

وأضعف الصبر: الصبر لله وهو صبر العامة وفوقه الصبر بالله وهو صبر المريد وفوقها الصبر على الله وهو صبر السالك.

تعليقات

الصبر أمر ندركه بالوجدان. لكن قد تعترضه شبهات تفقده حقيقته. والمطلب الأساسي في الصبر هو تحمّل المكروه لكي لا يؤثّر على مسيره في الحياة والسلوك، ومنع النفس من الشكوى الدالّة على الاعتراض على الله، ومن إظهار الجزع.

وإنما كان صعباً على العامة لأنهم لم يطمئنوا بالقضاء ولم يثقوا بما قُدّر، فيرون ما يحصل خلاف مصلحتهم.

والمحبة تقتضي الالتذاذ بفعل المحبوب. والمحب يرى كل شيء من المحبوب محبوباً. فلماذا يكره البلاء! وقد أنزله به المحبوب تقرّباً منه. فذكر الصبر عند أهل المحبة موحش لأنه حديث عن كراهة فعل المحبوب! كما أن الصبر إظهار التجلّد. وهو في مذهب المحبة من أشد المنكرات. قال الشاعر:

ويحسن إظهار التجلّد للعدى ويقبح إلا العجز عند الأحبة

أما التوحيد فإنه يقتضي فناء النفس وعدم رؤية الفعل منها. والصبر فعل للنفس.

والصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد. فالتصبّر للمحافظة على الإيمان وزيادته، لأنه عمل بمقتضاه. ومن عمل بمقتضى الإيمان زاد الله في إيمانه. فمن اجتنب المعصية أو واظب على الطاعة وهو مؤمن بجزاء الله، زاد إيمانه درجات.

ومن صبر في البلاء نزّل الله عليه ملائكة الرحمة تؤيّده بنور من الحق حتى يمتلئ قلبه إيماناً. فأعظم ما في الصبر بلوغ الصابر منازل الشهود.

الصبر لله هو الصبر لأجل ثواب الله وغفرانه. والصبر بالله هو القائم على تأييد الله وقوّته.

والصبر على الله هو الصبر على حكمه تعالى مع مكابدة الألم.

والصبر عن الله هو الصبر على فراقه وهو أشد من عذاب النار عند أهل المحبة.

الرضا

قال الله تعالى: ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾ [28/89]

لم يدع في هذه الآية للساخط إليه سبيلاً، وشرط على القاصد الدخول في الرضا.

والرضا اسم للوقوف الصادق، حيثما وقف العبد، لا يلتمس متقدماً ولا متأخراً، ولا يستزيد مزيداً، ولا يستبدل حالاً. وهو من أوائل مسالك أهل الخصوص وأشقّها على العامة.

وهو على ثلاث درجات:

الأولى: رضا العامة. وهو الرضا بالله رباً بسخط عبادة ما دونه. وهذا قطب رحى الإسلام، وهو يطهّر من الشرك الأكبر، وهو يصح بثلاثة شرائط:

أن يكون الله عز وجل أحب الأشياء إلى العبد

وأولى الأشياء بالتعظيم

وأحق الأشياء بالطاعة

الثانية: الرضا عن الله تعالى. وبهذا الرضا نطقت آيات التنزيل، وهو الرضا في كل ما قضى، وهو من أوائل مسالك أهل الخصوص.

ويصح بثلاثة شرائط:

باستواء الحالات عند العبد

وبسقوط الخصومة

وبالخلاص من المسألة والإلحاح

الثالثة: الرضا برضى الله تعالى. فلا يرى العبد لنفسه سخطاً ولا رضى. فيبعثه على ترك التحكم. وقطع الاختيار، وإسقاط التمييز ولو أدخل النار.

تعليقات

المراد بالوقوف الصادق هو الوقوف مع مراد الله تعالى. بحيث لا يخالجه إرادة أو اعتراض أو تردد. فهو قبول مع سكون النفس لكل ما يرد عليها لا يطلب لها إلا ما أراد الله. وهو بداية الفناء الإيجابي الذي يعد مقاماً شامخاً. وإنما كان أشق الأشياء على العامة لأن فناء الإرادة لا يكون إلا بترك الحظوظ.

الشرك الأكبر هو عبادة مخلوق لمخلوق أو طاعته باعتبار أنه واجب الطاعة مستقلاً عن أمر الله. وتظهر صحة الدرجة الأولى في تقديم الرب المتعال على المخلوق أينما لزم، سواء في المحبة أو التعظيم أو الطاعة.

ومن رضي عن الله بكل ما قضى وقدّر، فقد خرج من حظوظه وأفنى إرادته في إرادة الله تعالى. ومقام الخصوص هو الخروج عن النفس بفنائها في الله. واستواء الحالات عند العبد بأن لا يفرح بإقبال الدنيا عليه ولا يحزن من إدبارها. ولهذا فإنه لا ينازع الناس على شؤونه المادية إلا إذا كان في ترك مخاصمتهم فسادهم أو ضرر على غيرهم، فيكون من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ولهذا أيضاً لا يلح في السؤال وطلب الحاجات الدنيوية، بل يطلب على نحو الاجمال، امتثالاً لأمر الله. كل ذلك يكون مصححاً للدرجة الثانية من الرضا، فيستعد للدرجة الثالثة. وفيها يكون رضاه رضى الله تعالى لفناء صفاته في صفات الله. فلا يرى لنفسه رضى أو سخطاً. وهذا ما يبعثه على ترك الحكم في الأشياء بالتشهي والهوى، بترجيح شيء على شيء، وإيثار أمر دون أمر، بنفسه من نفسه. وهو يرى اختياره باختيار الله، فلا يميّز من نفسه.

ومثل هذا العبد قد انخلع عن صفاته لفنائه في صفات الحق. فما كان من حدوده المميزة له عن الحق يزول ويفنى. وما كان بالله يبقى ويدوم. وهو لا يبالي أين يضعه الله طالما أنه تعالى هو الذي يدخله ويخرجه.

الشكر

قال الله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ (13/34)

الشكر اسم لمعرفة النعمة، لأنها السبيل لمعرفة المنعم. ولهذا المعنى سمّى الله تعالى الإسلام والإيمان في القرآن شكراً.

ومعاني الشكر ثلاثة أشياء:

معرفة النعمة

ثم قبول النعمة

ثم الثناء بها وهو أيضاً من سبل العامة

وهو على ثلاث درجات:

الأولى: الشكر على المحبوب. وهذا شكر شاركت المسلمين فيه اليهود والنصارى والمجوس. ومن سعة بر الباري أن عدّه شكراً، ووعد عليه الزيادة وأوجب له المثوبة.

الثانية: شكر على المكروه، وهذا ممن تستوي عنده الحالات: إظهار الرضا. وممن يميّز بين الأحوال: كظم الغيظ، وستر الشكوى، ورعاية الأدب، وسلوك مسلك العلم.

وهذا الشكر أول ما يُدعى إلى الجنة.

الثالثة: أن لا يشهد العبد إلا المنعم. فإذا شهد المنعم عبودية استعظم منه النعمة، وإذا شهده حباً استحلى منه الشدة، وإذا شهده تفريداً لم يشهد منه نعمة ولا شدة.

تعليقات

الشكر أمر وجداني. يدرك فيه الإنسان النعمة مع نسبتها إلى المنعم بها والشعور بالامتنان. فمن رأى النعمة أجراً على شيء من عمله لم يكن شاكراً. ولأن الإيمان متقوم بمعرفة الله، والإنعام من أهم أفعاله. كان الشكر مساوياً للإيمان فقال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [12.31] مشيراً إلى التقابل بين الكفر والشكر، فصار الشكر محل الايمان.

ولا شك بأن النعمة هي الخير الواصل، فلا يُقال عن مالٍ بعيد عن متناول اليد إنه نعمة. والله تعالى يقول: ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾. فمن ذا يعرف نعمة الله؟! والشكر بعد الإدراك يتحقق بالثناء على المنعم.

أما ظهور الشكر من العبد، فليس من الادعاء أو سوء الأدب، لأنه سير على مقتضى الفطرة وجريٌ على حكم أصل الخلقة إلا أن يراه من نفسه. فالشكر أيضاً من آثار رحمة الله وعنايته بخلقه، وهو من أعظم المنن الإلهية ولهذا قال الإمام زين العابدين(عليه السلام):

"وشكري إياك يحتاج إلى شكر".

والدرجة الأولى من الشكر من حالات الإنسانية وخصائصها، يستوي فيها جميع أهل الملل، وهي لا تحتاج إلى تعليم. والثواب عليها إشارة إلى أن حفظ الإنسانية ورعايتها ولو في درجتها الأولى توفيق إلهي. وليست جهنم إلا لمن تنزّل إلى مستوى البهيمية بل أضل سبيلاً.

وفي الدرجة الثانية، إذا شكر الله على المكاره، وكان ممن لا يبالي بما يصيبه وهو يراه من الله، فهو الراضي. وإذا كان غير ذلك، فإن شكره على المكروه هو بكظم الغيظ وإخفاء الشكوى، ورعاية الأدب في محضر الله والالتزام بحكمه تعالى، فلا يشق جيباً أو يخمش وجهاً. ومن كتم الجزع والشكوى وزاد على الصبر شكراً استحق الجنة.

ومن أكثر الشكر بملاحظة النعمة انتقل من معاينة النعمة إلى مشاهدة المنعم، كمن ينتقل من المسبب إلى السبب ومن المعلول إلى العلة.

والاستغراق في المنعم مشغلٌ عن رؤية النعمة. وهذا الاستغراق على ثلاثة أقسام:

1. الاستغراق في شهوده تعبداً. وهو شهود العبد لسيّده. فإذا أفاض عليه في هذه الحالة نعمةً استعظم ذلك لأنه يرى نفسه أقل من أن ينعم عليه بشيء.
2. الاستغراق حباً، والحب يقتضي استحلاء الشدّة من المحبوب لأنها منه.
3. الاستغراق تفريداً. وهو مقام ليس فيه إلا الحق وحده، فلا غيره. ولهذا لا يشهد نعمة أو شدّة، لأنه بشهوده ذاهل عن نفسه وعن غيره.

الحياء

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ [96:14]

الحياء من أوائل مدارج أهل الخصوص، يتولد من تعظيم منوط بودّ.

وهو على ثلاث درجات:

الأولى: حياء يتولّد من علم العبد بنظر الحق إليه. فيجذبه إلى تحمّل المجاهدة ويحمله على استقباح الجناية، ويكفه عن الشكوى.

الثانية: حياء يتولّد من النظر في مدى القرب. فيدعوه إلى ركوب المحبة، ويربطه برَوح الأنس، ويكره إليه ملابسة الخلق.

الثالثة: حياء يتولّد من شهود الحضرة. وهي التي تشوبها هيبة، ولا تقاومها تفرقة، ولا يوقف لها على غاية.

تعليقات

إذا امتزج الود بالتعظيم ولّد الحياء عند أصحاب النفوس السليمة. ولولاها لم يبال بما يفعل في محضر العظيم.

وإنما يشكو العبد إلى غير الله ما يصيبه لأنه غافل عن نظر الحق إليه، أو جاهل به. ولولا ذلك لشكا إلى الله.

ومن علم أن الله تعالى أقرب الأشياء إليه، بل أقرب إليه من نفسه، سلك سبيل المحبة، وتعلق براحة الأنس به. وأن لذة الأنس بالحق تستلزم الوحشة من الغير، وتحبب إليه الخلوة مع الله.

وإذا تجلّى الحق من الجناب الفرداني الأقدس، وشهد العبد هذا الحضور تغشّاه الهيبة، فينكسر حياءً، ولا تؤثر فيه كثرة أو تفرقة لأنه مجموع على الحق. ولا يقف بعدها عند حدٍّ لشدة جاذبية الهيبة.

الصدق

قال الله تعالى: ﴿فإذا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ [21/47]

الصدق اسم لحقيقة الشيء بعينه حصولاً ووجوداً.

وهو على ثلاث درجات:

الأولى: صدق القصد وبه يصح الدخول في هذا الشأن ويُتلافى كل تفريط، ويُتدارك كل فائت، ويُعمّر كل خراب. وعلامة هذا الصادق أن لا يتحمل داعية تدعو إلى نقض العهد، ولا يصبر على صحبة ضد، ولا يقعد عن الجد بحال.

الثانية: أن لا يتمنى الحياة إلا للحق، ولا يشهد من نفسه إلا أثر النقصان، ولا يلتفت إلى ترفيه الرخص.

الثالثة: الصدق في معرفة الصدق. فإن الصدق لا يستقيم في علم الخصوص إلا على حرفٍ واحد، وهو أن يتفق رضى الحق مع عمل العبد أو حاله أو وقته، أو فعل العبد مع قصده، فيكون العبد راضياً مرضياً، فأعماله مرضية وأحواله صادقة وقصوده مستقيمة.

وإن كان العبد قد اكتسى ثوباً معاراً، فأحسن أعماله ذنب، وأصدق أحواله زور، وأصفى قصوده قعود.

تعليقات

الصدق هو المطابقة في القول أو الفعل أو الاعتقاد. فيُقال صدق في قوله أو فعله أو نفسه. ثم لمّا كان الصدق ينبئ عن حقيقة الشيء على ما أُخبر عنه وجوداً نُقل استعمال لفظه إلى كل حقيقة تمّ لها ما تمّ بالقوة. أي حصل لها وتحقق كل ما به تكون هي هي من الكمالات التي أمكنت لها. كأن آثارها وأحوالها تخبر أن كل ما ينبغي لها (حتى تكون تلك الحقيقة بعينها) قد حصل لها بالفعل، وهي صادقة. والرمح الصدوق هو الرمح التام الذي لا ينقصه شيء من لوازم الرمح!

والدرجة الأولى من الصدق هي التي تتعلق بالنية والغاية. وصدقها أن يتوجه القلب إلى المقصود فيجعله أولى من كل شيء في حياته، أنّى حصل التزاحم. ولهذا لن يشغله في السير إليه شاغل. فيخرج عن حكم التعارض ويجعل دنياه تحت سيطرة آخرته. ومن طلب الآخرة التي هي محل لقاء الله جدّ في السعي وتلافى كل تفريط.

أما الدرجة الثانية: فإنها تأتي نتيجة شهود الكمال منحصراً بالحق تعالى، فكيف يطلب لنفسه حظاً؟ فهنا يطابق سيره شهوده، ويعيش حقيقة فقره. فتتحول حياته كلها لله سبحانه. لأنه علم أن شأنه بين يدي الله هو العبودية.

والثالثة تأتي نتيجة التوفيق الإلهي للعبد في تحويل حياته كلها إلى ما يطابق رضى الله تعالى. فإن العبد مهما بلغ من نفسه لينال هذا الأمر لم يقدر عليه إلا بتوفيق خاص من ربه، فيعلم حينها أن الله قد صادق على صدقه. وما كان في نيته وسيره قد تم التصديق عليه من ربه. وعليه يكون سير الصادق في مراتب الكمال ومنازل السير بدءاً من النية مروراً بالغاية حتى يصدقه الله تعالى فيجعله من الصادقين الذين تنطبق حياتهم ووجودهم على إرادة الله ورضاه. ونتيجة هذه الدرجة أن يدرك حقيقة التوحيد، ويرى أن كل ما ينسبه إلى نفسه ليس بشيء.

الإيثار

قال الله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [9/59]

الإيثار تخصيص واختيار وهو يحسن طوعاً ويصح كرهاً

وهو على ثلاث درجات:

الأولى: أن تؤثر الخلق على نفسك في ما لا يحرم شرعاً، ولا يقطع عليك طريقاً، ولا يفسد لك وقتاً.

ويُستطاع هذا بثلاثة أشياء:

بتعظيم الحقوق

ومقت الشح

والرغبة في مكارم الأخلاق

والثانية: إيثار رضى الله تعالى على رضى غيره وإن عظمت فيه المحن وثقُلت به المؤن وضعف عنه الطَول والبدن.

ويُستطاع هذا بثلاثة أشياء:

بطيب العود

وحسن الإسلام

وقوة الصبر

والثالثة: إيثارُ إيثارِ الله تعالى. فإن الخوض في الإيثار دعوى الملك، ثم ترك شهود رؤيتك إيثار الله، ثم غيبتك عن الترك.

تعليقات

الإيثار بديهي وجداناً وإن ندر ممارسةً. وحيث أن السالك ينبغي أن يكون متوجهاً دوماً إلى التوحيد، فهو يلحظ في كل فعل أو مقام جهة الادعاء والأنا التي هي حجاب الحق ومنشأ النظر إلى ما سواه وإضفاء السببية على الأشياء. ولهذا أشار إلى جهة الاختيار في الإيثار حيث يدعي المؤثر الملك لنفسه ثم يقدمه لغيره تنازلاً. ولكن أثره الطيب في القضاء على الأنا والتقريب من الفناء يغلب جهة الادعاء، حتى صار مقبولاً ولو كان المؤثر كارهاً في باطنه.

والدرجة الأولى من الإيثار والتي تكون مقدمة لما بعدها إيثار الناس على النفس بشرط عدم الإخلال في الواجبات سواء كانت حقوقاً للناس كالزوجة أو حقوقا لله كالصلاة. فإن لبدنك عليك حقاً تحافظ عليه حتى تقوم بالوظائف التي فرضها الله عليك.

ولهذا لن يقوم بهذه الشروط إلا من عرف الحقوق والواجبات وعظمها في نفسه وكره الشح والبخل، وتعالى عن الصغائر والزائلات.

والدرجة الثانية: إيثار رضا الله تعالى على رضى المخلوقين حين يقدّم نفسه وما يملك في سبيل الله تعالى، أي لدينه سبحانه. وهو أعلى، وإن كانت نتيجته في الدنيا ستعود على الناس بأفضل صورة. فما من مجاهد في سبيل الله إلا وهو سبب الخير لعموم البشر. لكنه في المقطع المنظور قد يُشاهَد وكأنه لا يهمه إلا ربه. بل قد يغلب عليه هذا الأمر نفسه، فلا يلاحظ أحداً إلا ربه.

ويبيّن صاحب المنازل أن طهارة الأصل وطيبه هي التي تعين الإنسان على هذا التوفيق، بالإضافة إلى صدق الاعتقاد وقوة الصبر، نظراً لما فيه من تضحيات تفوق كل اعتبارات الدنيا.

وفي علم التوحيد فإن رؤية الإيثار نابعاً من النفس هو النظر إلى ما سوى الحق وإن كانت النية لله. فعليه أن يعلم أن المؤثر في الحقيقة هو الله تعالى، وقد أجرى الإيثار على يديه. فإذا شاهد هذه الحقيقة ببقاء إنيته فعليه أن يترك هذا الشهود بمعنى أن لا يستغرق فيه. حتى إذا رأى تركه هو وعلم ما في هذه الرؤية من حجاب، غاب عنها. فالأصل في هذه الدرجة هو تصفية الإيثار من شوائب السوائية لا تركه بذاته.

الخُلق

قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [4/68]

الخُلق ما يرجع إليه المتكلِّف من صفته.

واجتمعت كلمة الناطقين في هذا العلم أن العرفان العملي هو الخُلق، والجامع فيه يدور على قطب واحد، وهو بذل المعروف وكف الأذى.

وإنما يمكن إدراك ذلك في ثلاثة أشياء: العلم والجود والصبر.

وهو على ثلاث درجات:

الأولى: أن تعرف مقام الخَلق أنهم معلقون بأقدارهم، وفي طاقاتهم محبوسون، وعلى الحكم موقوفون. فتستفيد بهذه المعرفة ثلاثة أشياء: أمن الخلق منك حتى الكلب، ومحبتهم لك ونجاتهم بك.

والثانية: تحسين خلقك مع الحق. وتحسينه منك أن تعلم أن كل ما يأتي منك يوجب عذراً، وكل ما يأتي من الحق يوجب شكراً وأنه لا بد من الوفاء له.

الثالثة: التخلق بتصفية الخُلق، ثم الصعود من تفرق التخلق بمجاوزة الأخلاق.

<u>تعليقات</u>

إذا كان التصوف هو التجلّي العملي للعرفان، فصحّ أن يُقال: العرفان العملي قائم على أساس حسن الخُلق مع الناس. ولا تعجب من ذلك فإنه إن كانت الغاية من السير والسلوك هي التخلّق بأخلاق الله، فاعلم أن أعظم أسماء الله تعالى كما ورد في الحديث هو حسن الخُلق مع الخَلق. فالعفو والحلم والرحمة كلها صفات الله الحسنة التي لا تظهر إلا بفضل وجود الناس. (ولهذا الكلام تفصيل طويل نعرض عنه في هذا المختصر مكتفين بالإشارة).

وحسن الخلق يقوم على أساس البذل والكف. بذل المعروف بكل أشكاله ومنها ولا شك السلام والبشاشة والعفو والصفح والإحسان لمن أساء إليك. وكف الأذى وإن كان الطرف الآخر ظالماً لك، طالما أن ظلمه أمر شخصي، إلا أن يؤدي إلى تجرّؤ ذلك الشخص على ظلم الآخرين. لكن تشخيص هذا الأمر الأخير صعبٌ وفي غاية الإشكال، فالأولى أن يقطع دابر الشيطان بكف الأذى مطلقاً.

ولا شك بأن أبخل الناس من بخل بالسلام، ومن مظاهر السلام التحية التي نقول فيها السلام عليكم. لكن السلام أوسع وأعم. ولأن السلام مع الخَلق لا يتطلب بذلا يشق على الإنسان، كان عدم نشره من أشد حالات البخل!

وليس الخُلق فعلاً أو تصرفاً، بل هو صفة وملكة راسخة في النفس يرجع إليها المتكلف في أفعاله. وبعبارة أخرى، فإن الخُلق هو المنشأ والمقوّم للأفعال.

وتحسين الخُلق مع الخَلق يقوم على المداراة؛ وهي رعاية أحوال الناس واستعداداتهم. فمن توقع من إنسان شيئاً وهو لا يقدر عليه كان توقّعه في غير محلّه. فيجلب له هذا التوقع التألم، ويبعثه على التشدد معه. وعلى سبيل المثال، إذا كنا ننتظر من جارنا أن يبدأنا التحية لكنه لم يفعل، فإننا سنعبس بوجهه ولا نبادره بالسلام وربما يتطور الأمر عندنا إلى تصرّفات غير لائقة باعتبار أنه لا يقوم بواجبه تجاهنا وأمثال ذلك. لكننا لو عرفنا أن تصرفه نابع من سلسلة من العوامل التي تكبّله وتقيّده، سواء من أيام طفولته التي تعرّض فيها للكثير من الضغوط من والديه، ومن ظروفه القاسية التي مرّت عليه، لعذرناه وغفرنا له؛

بل لتملّكتنا حالة من الإشفاق عليه تدفعنا إلى المبادرة للإحسان إليه بكل ما أمكن. فهذه هي المداراة وهي غير المداهنة حتماً.

وهكذا يكسب ود الناس بحسن خُلقه معهم، فيؤثّر فيهم أعظم الأثر، ويوجِد فيهم من التحولات ما يكون سبباً لنجاتهم. فهداية الناس بالإحسان إليهم وحسن معاشرتهم من أعظم السبل.

أما حسن الخُلق مع الحق فهو يقوم على معرفة حقيقة مقامك بين يديه وأنك لا تملك حقاً مقابله، وأن أي حق لك فهو الذي كتبه على نفسه لا لاستحقاق منك. ومهما بلغت من العمل والطاعة، فإن ذلك بفضل إحسانه إليك. فالعبد لا يمكن أن يتبدل من حالة الافتقار المطلق إلى مقام الاستحقاق. ولهذا فإن أساس الخُلق مع الله تعالى هو الشعور بالتقصير دوماً والاعتذار لرؤية النقص من النفس، والشكر أبداً لرؤية التفضل منه سبحانه.

أما الدرجة الثالثة، فهي التي تتطلب تصفية الخُلق من كونه كسباً قائماً بالنفس ورؤيته تفضلاً من الله تعالى. حتى إذا رأى أن تصفيته هي شكل من أشكال رؤية نفسه، صعد منها وارتقى، لكي لا يبقى أية إنية فيه. وهناك يصبح مستعداً لنفي الصفات والفناء في الذات. فمقام الصفات والأخلاق وإن كان عظيماً لكنه نوع من التفرق أمام الفردانية وعين الجمع.

التواضع

قال الله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [25/63]

التواضع أن يتضع العبد لصولة الحق وسلطانه.

وهو على ثلاث درجات:

الأولى: التواضع للدين وهو أن لا يعارض بعقله المقيّد النص الشريف، ولا يتهم للدين دليلاً، ولا يرى إلى مخالفة الشرع سبيلاً.

ولا يصح ذلك إلا بأن يعلم أن النجاة في البصيرة، والاستقامة بعد الثقة وأن البينة وراء الحجة.

والثانية: أن ترضى بمن رضي الحق به لنفسه عبداً من المؤمنين أخاً، وأن لا ترد على عدوك حقاً، وتقبل من المعتذر معاذيره.

الثالثة: أن تتضع للحق، فتنزل عن رأيك وتتنازل عن حظوظ نفسك من الخدمة، ورؤية حقك في الصحبة وعن رسمك في المشاهدة.

تعليقات

أصل التواضع التذلل للحق. وهو يظهر مع الخَلق باعتبار أن لهم حقوقاً نابعة من الحق الأول. فلو لم يعطهم الحق تعالى أي حظ من الحق أو الحقوق لما كان جديرا أن يتواضع لهم. ولهذا فإن جميع أشكال التواضع ترجع إلى التذلل للحق.

وأول مظاهر الحق في الحياة دين الإسلام وشريعته. ولهذا كان التعبد والتذلل لهذا الدين أول مراتب التواضع. ولأن الدين أيضا مرجع تعيين الحقوق. ومن لم يعرف الدين وحدوده، أوشك أن يتحوّل تواضعه للناس إلى ذل، وقد يتمادى به الأمر حتى يصير إعانة على الإثم. كما حصل لبعض الصوفية الذين تواضعوا للبَر والفاجر وفي جميع الحالات، باعتبار أن الكل خلق الله!

فالتواضع لا يكون إلا لله تعالى في مظهرية الحق. ولهذا فإن المتواضع الحقيقي هو الذي عرف الحدود والمقامات باعتبارها حقوق الله الظاهرة والمتجلية في مراتب الإنسان والأكوان. فيزداد تواضعاً لمن حقه أكبر عليه، ويترك التواضع لمن هتك ستر الحق. بل يتكبر عليه حين الضرورة!!

فالتواضع للدين إنما يكون باعتباره مظهر الحق الذي يتجلّى في تعاليمه ونصوصه الصحيحة ودلائله وأحكامه. ويقوم التواضع هنا على الخضوع لهذه الحقيقة والانقياد لها وتكون ثمرته ظهور البينات من وراء الأحكام، لأنه وثق بها وخضع.

وللمؤمن حق عظيم عند الله، ورد في الحديث أنه لا يُدرك. فكيف نتعامل معه؟ والمقصود بالعدو هنا العدو الشخصي لا عدو المسلمين الذي هو عدو الله الخالي من الحقوق. وحق من عاداك لشخصك أن تقابل إساءته بالإحسان كما قال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [34:41].

وبعد التمكن من الدرجة الثالثة وهي في غاية الصعوبة إلا على الخاشعين، يصبح السالك مستعداً لإدراك الحق المطلق لا المقيّد. فيرى حقّه عليه فوق ما يتصور ولا يرى لنفسه حقاً عليه، بل كل ما فيه من خير هو محض التفضل منه سبحانه. فكيف يطلب لنفسه حظاً أو مقاماً في المعنى أو بين الناس. فإن كل ذلك من رؤية النفس والاستحقاق وهي عين الباطل: ألا كل ما خلا الله باطل.

الفتوة

قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [18 13]

خلاصة الفتوة هي أن لا تشهد لنفسك فضلاً ولا ترى لها حقاً.

وهي على ثلاث درجات:

الأولى: ترك الخصومة والتغافل عن الذلة ونسيان الأذية.

الثانية: أن تقرّب من يقصيك وتكرّم من يؤذيك وتعتذر إلى من يجني عليك، سماحاً لا كظماً وطيباً لا مصابرة.

الثالثة: أن لا تتعلق في المسير بدليل؛ ولا تشوب إجابتك بعوض؛ ولا تقف في شهودك على رسم.

واعلم أن من أحوج عدوّه إلى شفاعة ولم يخجل من اعتذاره لم يشم رائحة الفتوة. ثم في علم الخصوص من طلب نور الحقيقة على قدم الاستدلال لم يحلّ له ادعاء الفتوة أبداً.

تعليقات

السالك الذي علق قلبه بالله وانقطع عن المخلوقين، إلا ما عيّن الله له، لا يقارن نفسه بهم. ولهذا فإنه لا يجري حسابات التفاضل بينه وبينهم. وإنما أسقط حقه بالكامل فلا يطالبهم، لأنه مستغرق في أداء ورعاية ما عيّن الله من حقوقٍ لهم.

وعليه فإنه يرى أية مخاصمة منه لهم نوع مطالبة بحق أو دفاعاً عن النفس. وذلك كله خلاف الفتوة التي هي عبارة عن ارتقاء صفات النفس إلى مقام القلب الصافي.

وهكذا يصبح مهيّأً للدرجة الثانية فيحسن إلى من أساء إليه دون أي شعور بالغيظ أو التألم الباطني، ويقرّب من ينتقده ولو لاذعا لأنه يراه أفضل معين على نفسه. فهذه النفس أمّارة بالسوء وهي أعدى أعداء الإنسان. وهو يرى من يؤذيه سبباً للتكفير عن ذنوبه، وأن الأذى أمر أحدثه الله به. فكيف لا يشكره ولا يعتذر إليه! وذلك لا يكون إلا عن طيب نفسٍ لمعرفته بذلك يقيناً لا تصنّعاً.

وفي الدرجة الثالثة يخلص من سطوة الدليل العقلي ويتحرر من التمسّك به كطريق وحيد إلى الحقيقة. فإن الله تعالى يفتح عليه أبواب الكشف والهداية التي تجعل الحقيقة ناصعة حاضرة. والدليل إذا كان فتبع الحقيقة أو من باب التأييد أو الإعانة على هداية الآخرين.

ولأنه اعتاد الخروج عن المطالبة بحقه فإنه لا يطلب من الله عوضاً على أي شيء. وحيث كانت رعايته للغير تحت ظل حق الله وفي كنفه، فإنه يدخل إلى مقام التجرد عن الرسوم التي هي حدود الغيرية والسوائية المفرقة عن الله تعالى.

الانبساط

قال الله تعالى حاكياً عن كليمه موسى عليه السلام: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ﴾ [155/7]

الانبساط إرسال السجيّة والتحاشي من وحشة الحشمة وهو السير مع الجبلّة.

وهو على ثلاث درجات:

الأولى: الانبساط مع الخَلق؛ وهو أن لا تعتزلهم ضنّاً على نفسك أو شحّاً على حظك. وتسترسل لهم في فضلك وتسعهم بخُلقك وتدع المؤمنين يطؤونك. هذا، والعلم قائم وشهودك المعنى دائم.

الثانية: الانبساط مع الحق؛ وهو أن لا يوقفك خوفٌ، ولا يحجبك رجاءٌ، ولا يحول بينك وبينه آدم وحواء.

الثالثة: الانبساط في الانطواء عن الانبساط وهو رحب الهمة، لانطواء انبساط العبد في بسط الحق جل جلاله.

تعليقات

في مسير الإنسان المعنوي يكون لوجود الناس والارتباط بهم تأثيرٌ مهم، وفوائد وجودهم والعيش معهم لا تحصى. فإن السالك يستعين بهم على سلوكه من جهات عدّة. ومنها تحقير نفسه ووضعها موضعها في اللاشيئية أمام الله تعالى. ولولا الناس لرأى الإنسان لنفسه مقاماً منيعاً عند الله.

ومن أجل النجاة من هذه الروحية المهلكة، يتذلل لهم ويتواضع، ويرسل نفسه على سجيتها، مع المحافظة التامة على حدود الشرع وعدم الغفلة عن المعنى المقصود. كل ذلك من أجل التأكيد في نفسه على أنه لا زال عبداً حقيراً. فإن الإنسان إذا تُرك وشأنه وغفل عن ربه وترك تزكية نفسه، قد يصل إلى حيث يرى المنّة على ربّه. فالانبساط مع الخلق المذكور هنا من أهم المعينات على طريق العبودية. وهو علامة صحة المسير التكاملي. ولهذا ورد أنه لا يخلو المؤمن من دعابة. والدعابة كما نعلم هي نوع تواضع وتذلل. ولهذا ترى المتكبرين المتعالين عن الناس جديين دائماً، همّهم الحفاظ على الحدود التي وضعوها بينهم وبين الناس.

الانبساط يسقط هذه الحدود، لكن لا ينبغي الإفراط فيه. ولهذا قيّده بقوله والعلم قائم. أي حد الانبساط والسماح هو أن لا تخرج عن حكم المباح ولا تميل إلى الذهول واللهو فتقع في المحظور الشرعي أو الغفلة الطبيعية.

ومن الطبيعي للسالك الذي عايش طويلاً نفحات جمال المعبود أن يشعر بنوع من التدلل، فينبسط بحكم الاسترسال، ويخترق في بعض الأحيان حدود الخوف وسدود الرجاء. فتراه يتصرّف كمن كان له عند الله حظوة أو كمن لم يعد له في الخلق حاجة. والعارف يراه رعونة وجرأة. لكن تصرفه ذلك لا يخرج عن حدود الشرع ولوازم العقل. وهناك يرتقي إلى شهود الاسم الباسط حيث يتجلى على قلبه، فينطوي بساط انبساطه في بسط الحق تعالى من غير قبض منه سبحانه. فهو رحب الهمّة. فانبساط العبد صار ببسط الحق لا من نفسه.

مرحلة الأصول

القصد والعزم والإرادة

والأدب واليقين والأنس

والذكر والفقر والغنى

ومقام المراد

الأصول هي مباني السلوك وأسس السير. يبتني عليها قطع الأودية بنور القوة القدسية. وهي محطات للقلب. يقطعها بمعونة العقل. مثلما أن الأخلاق كانت منازل للنفس تكسبها بمعونة القلب.

فإذا تجاوزها اتضح سبيله وسهل. وانجذب بالمحبة إلى الحقيقة حتى يصل. لأن ما فوقها من الأحوال. وما بعدها: مواهب ليس للسعي فيها مدخل. ولا للكسب فيها مجال. وكأنها ثمار ما قبلها وآثار.

أما ما تحتها من الأخلاق وما قبلها من منازل النفس ومقاماتها. فهي وإن كانت مكاسب للقلب. لكن بالنظر إلى ما تحته من إصلاح النفس وتطويعها حتى تشايعه وتصاحبه في الترقي وقطع العلائق ورفع العوائق. حتى لا تمانعه في العروج. فهي ليست من الترقي في شيء.

وإنما مبادئ الترقي بعد تحصيل الشرائط والاستعداد هي هذه الأمور. ولا شك بأن حقيقة الإنسان هي القلب. المسمّى بالنفس الناطقة. وهو المتوسط بين عالم الألوهية. وعالم المخلوقية. فرتبته ومركزه وسط الوجود. ومنه مبدأ الترقي من مقامه الأصلي.

فأول أصول الترقي والسير إلى اللّه هو القصد والعزم.

القصد

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيماً﴾ [4,100]

القصد هو الإزماع على التجرد للطاعة.

وهو على ثلاث درجات:

الأولى: قصد يبعث على الارتياض، ويخلّص من التردد، ويدعو إلى مجانبة الأغراض.

الثانية: قصد لا يلتقي سبباً إلا قطعه، ولا يدع حائلاً إلا منعه، ولا تحاملاً إلا سهّله.

الثالثة: قصد استسلام لتهذيب العلم، وقصد إجابة لدواعي الحكم، وقصد اقتحام في بحر الفناء.

تعليقات

لما كان المقام الإنساني الأولي هو المعبّر عنه بالقلب، كان قصد العروج منه إلى الحضرة الإلهية عبارة عن الخروج من بيته. ولا يتحقق ذلك إلا إذا أزمع وصمم على التجرّد إلى الطاعة وعدم الميل إلى أي شيء سواها.

ورغم أن القصد من أبواب الأصول، إلا أنه يتجلّى في البدايات بالانبعاث إلى الرياضة وترك العادة وتعويد النفس على الطاعة والانقياد. ونتيجته أن يتخلّص من آفة التردد والابتعاد عن طلب حظوظ النفس والأغراض.

أما في الدرجة الثانية، فإن القصد يقوى إلى الدرجة التي لا يلتقي بأي سبب يحول بينه وبين الحق إلا قطعه، ولا يدع حائلاً من الحجب النورية والظلمانية إلا صدّه قبل حصوله، ونتيجة ذلك تسهيل المشقّات. وكلّما بالغ في التذلل للعبادة ازداد في التلذذ.

وفي الدرجة الثالثة يتحوّل القصد إلى التسليم للعلم الظاهر الذي هو الشرع الأنور، يدعه يهذّب ظاهره وباطنه، وإلى إجابة دواعي القضاء الإلهي التي تدعوه إلى الخدمة الخاصة التي خُلق من أجلها في الزمان والمكان المحددين، ويسمّيها أصحاب الطريقة "سر الله الداعي إليه". ويُقال أنها من مبادئ التعرفات والتجلّيات الإلهية على قلب عبده المؤمن، وبداية الجذبة إلى الفناء في حضرة الجمع.

العزم

قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [159/3]

العزم هو تحقيق القصد طوعاً أو كرهاً.

وهو على ثلاث درجات:

الأولى: امتناع الحال عن مطاوعة العلم، بشيم برق الكشف واستدامة نور الأنس، والاستجابة لإماتة الهوى.

الثانية: الاستغراق في لوايح المشاهدة، واستنارة ضياء الطريق، واستجماع قوى الاستقامة.

الثالثة: معرفة علّة العزم، ثم العزم على التخلّص من العزم، ثم الخلاص من تكاليف ترك العزم. فإن العزائم لم تورث أهلها ميراثاً أكرم من وقوفهم على علل العزائم.

تعليقات

القصد هو النية والعزم مبدأ الشروع في الفعل وبه يتحقق القصد، سواء بإطاعة النفس له أو كراهتها.

وفي الدرجة الأولى حين تتعارض مقتضيات الحال مع العلم؛ فالأول يقتضي الشهود والفناء، والثاني يقتضي الوجود والاحتجاب. لأن الحال باعث نحو الوحدة، والعلم يقتضي متابعة الأفعال الصادرة من النفس. وإنما يحصل ذلك في الدرجة الأولى بعد أن يشرع في تحقيق القصد بالسعي، فيكسبه السعي أحوالاً. فهو مهتم بالفعل من جهة أهميته، لكنه يعيش لوازم الأحوال الباعثة على الفناء في الحق بسبب شيم بوارق الكشف وملاحظتها (وهي تعرض وتزول بسرعة، كالبرق). وبسببه يبقى الأنس عليه وإن زال البرق، بعد أن ذاقه. ونتيجة ذلك أن يستجيب بسرعة لكل ما يميت الهوى (الذي هو حياة النفس وبقاء تصرفها). وقد ذكر شارح المنازل أن بعض السالكين يشعرون عند إشرافهم على الكشف بحالة كالموت، فتهوى أنفسهم العودة إلى الاحتجاب (خوفاً من الانعدام). فهذا العزم يميت ذلك الهوى.

وفي الدرجة الثانية تتواتر أنوار جمال المشهود وتستولي على المشاهد حتى يذهل عن نفسه، فيتضح طريقه بنور المقصود، لشدة اتصال القصد بالمقصود، ويستجمع جميع قواه لتصبح هماً واحداً، وينخرط بكلّه في سلك التوجّه نحو الله والسير إليه.

وفي الثالثة يثمر العزم معرفة آفات العزم وعلله، والتي ترجع كلها إلى ما سوى الحق ورؤية النفس. ولأنهم عرفوا ذلك، يعزمون على التخلص من العزم من جهة كونه صادراً من النفس.

لكنهم لما رأوا ترك العزم إثباتاً لأنفسهم (حيث أثبتوا تركه إليها أيضاً)، أرادوا الخلاص من تكاليف ترك العزم. ولا يمكن ذلك إلا بالعجز عن الترك. فإن الله تعالى إذا جاءه عبده عاجزاً مستسلماً بعد بذل أقصى الجهد، خلّصه من جميع الآفات.

ولا ننسى أن هذا المقام لا يُنال إلا بعد بذل أقصى العزم.

الإرادة

قال الله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ [17/84]

الإرادة هي الإجابة لدواعي الحقيقة طوعاً.

وهي على ثلاث درجات:

الأولى: ذهاب عن العادات بصحبة الشريعة
وتعلق بأنفاس السالكين مع صدق القصد
وخلع كل شاغل ومشتّت من الخلّان والأوطان

الثانية: انقطاع بصحبة الحال
وترويح الأنس
والسير بين القبض والبسط

الثالثة: ذهول مع صحة الاستقامة
وملازمة الرعاية على تهذيب الأدب

تعليقات

تُعدّ الإرادة من قوانين وأصول علم السير والسلوك وجوامع أبنيته وقواعده.

والحقيقة في عرف العارفين هي الوجود الإلهي الذي يدعو كل إنسان من أعماقه للرجوع إلى ربه بحكم الفطرة المودعة فيه، والتي هي الشوق والعشق الجبلّي للحق المتعال. فالحقيقة كامنة في كل واحد منا بل هي أصلنا. فما لم تظهر الإرادة وتتحقق الاستجابة لدواعي الحقيقة طوعاً ومحبةً، فليس من سلوك. لهذا كان السلوك مبتنياً على الإرادة.

وتتجلّى الإرادة في الدرجة الأولى بالنفور والإعراض عن عادات النفوس والعوام وتقاليد المجتمع الجاهلية، مع الالتزام بقوانين الشرع الأنور، وتقديم إرادة الله التشريعية على كل عادة وتشريع.

كذلك تتجلّى بالتلاقي الحتمي مع السالكين والتعلّق بأرواحهم والاستمداد من أنفاسهم الطاهرة، ليس لغرض دنيوي ولا عوض شخصي. فيخلع السالك كل ما يمكن أن يشغله ويشتت حاله من الملاهي والأسباب واللغو.

فهذا أول أقسام الإرادة، وبه يسمّى مريداً بالحقيقة.

وفي الدرجة الثانية يكون الانقطاع مع صحبة الحال، بعد ثبوت صحبة الشرع والإلتزام به. وإن كان هذا الانقطاع غير كمال الانقطاع (المذكور في المناجاة الشعبانية). فقد يحصل متقطّعاً لترادف الأحوال وتواتر الواردات. وفيه يحصل الأنس ويخلص من متاعب العبادة ومشاق التكاليف. وحينئذٍ يسير بين القبض والبسط. فقابض يقبضه لغلبة حكم الشرع وظهور البقية من النفس، وباسط يبسطه لقوة سلطان الحال وغلبة نور الكشف. وهذا حال المتوسطين.

وفي الدرجة الثالثة من الإرادة؛ بعد الإعراض والانقطاع، يحصل ذهول بسبب الغيبة عن النفس والغير مع صحة الاستقامة وعدم الشطح في العمل والأداء، ورعاية الحقوق وحفظ الأدب. وذلك علامة صحة حاله.

الأدب

قال الله تعالى: ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ [112/9]

الأدب حفظ الحد بين الغلو والجفاء بسبب معرفة ضرر التجاوز.

وهو على ثلاث درجات:

الأولى: منع الخوف أن يتعدى إلى اليأس، وحبس الرجاء أن يخرج إلى الأمن، وضبط السرور أن يضاهي الجرأة.

الثانية: الخروج من الخوف إلى ميدان القبض
والصعود عن الرجاء إلى ميدان البسط
والترقي عن السرور إلى ميدان المشاهدة.

الثالثة: معرفة الأدب، ثم الغنى عن التأدب بتأديب الحق
ثم الخلاص من شهود أعباء الأدب.

تعليقات

الأدب عبارة عن رعاية الحقوق بعدم تجاوزها زيادة ونقصا. وحق كل شيء هو حده من الوجود. وكل عال بالنسبة للسافل غير محدود فيكون حقه بالنسبة إليه كذلك؛ ولهذا قيل أن حق المؤمن لا يدرك لأن حقه من حدّه، وحدّه زال وفني في الله واتسع بسعة أسماء الله. ومن أدرك الأعلى رجع حد العالي إليه وإن بقي حقه لأنه يراه بالنسبة إلى نفسه لا بالنسبة إلى الأعلى. إلى أن يدرك أن لا حد لعظمة الله.

والأدب طريق الأصفياء وأسرع الأشياء تأثيراً في النفوس. وأهميّته تُعلم من خلال دوره، حيث أن المتكلّف للأدب قد يبلغ ما لا يبلغه الصائم القائم. ولا يُشترط فيه حضور القلب، رغم عظيم أثره في القلب.

والدرجة الأولى من الأدب تدور حول الارتباط بالله تعالى. فإن المؤمن في بدايات سيره يكون مورداً للكثير من الواردات الإلهية والتعرّفات الربانية التي لا يعلم سرّها. وبسبب ذلك قد يتعدى إلى اليأس إذا نزلت به نازلة، أو إلى الأمن من مكر الله إذا تواترت عليه النعم، فيتجرّأ على ربه ويطلب منه ما لا يستحقه!

فالأدب هنا يقتضي كف النفس عن التعدي على حدود الله وأسمائه من الرحيم والغفور والمغني أو المضل والمنتقم. ومن عرف الله تعالى خافه، ومن عرفه لم ييأس من رحمته. والتعدي قد يكون بالقول أو الفعل. لهذا فإن المتأدِّب هنا هو الذي لا يفعل أو يقول شيئاً يدل على يأسه أو جرأته على ربه... وليُعلم أن أكثر ما يمكن أن نتعلمه في هذا المجال إنما يكون على يد أهل الله من المهذبين والمتأدبين. ومن البعيد بمكان أن نقدر على هذا الأدب لوحدنا!

أما الدرجة الثانية، فهي تقتضي الانتقال بالخوف والرجاء من صفات النفس التي هي انفعالات للحوادث إلى مقام القلب الذي هو محل واردات الأسماء الإلهية مع حفظ التعادل بين القبض والبسط.

وفي الثالثة يتعرف على حقيقة الأدب، ويعلم أن المؤدِّب الحقيقي هو الله سبحانه، فيسقط ما في يده ويلجأ إلى الله المؤدب لعلمه بانحصار كل كمال وفعل به، ولا ينسب الأدب إلى نفسه، فيتخلّص من علّة الأدب وآفته بفناء أدبه في أدب الحق.

لكنه قد يرى نفسه في عين مشاهدة التوحيد، ويعلم أن رؤية النفس مقابل الحق علّة أخرى، فيخلص من شهود أعباء الأدب التي هي السوائية والغيرية والتفرقة.

اليقين

قال الله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾ [20/51]

اليقين مَرْكب من أراد سلوك هذا الطريق.

وهو غاية درجات العامة، وقيل أول خطوة للخاصة.

وهو على ثلاث درجات:

الأولى: علم اليقين. وهو قبول ما ظهر من الحق، وقبول ما غاب للحق،
والوقوف على ما قام بالحق.

الثانية: عين اليقين. وهو الغنى بالإدراك عن الاستدلال
وعن الخبر بالعيان
وخرق الشهود لحجاب العلم

الثالثة: حق اليقين. وهو إسفار صبح الكشف
ثم الخلاص من كلفة اليقين
ثم الفناء في حق اليقين

تعليقات

لا مكان للتردد والشك في هذا الطريق. فاليقين هو الوقود فيه، رغم أن العامة يعدّونه أعلى درجات الإيمان. وقد قيل في بيان درجات اليقين أنها درجات ثبوت الحقيقة في النفس. فمرة يكون الثبوت بالإثبات والاستدلال، وهو علم اليقين. ومرة بالمشاهدة والعيان، وهو عين اليقين. وثالثة بالتحقق؛ كمن يحترق بالنار بعد الاستدلال عليها بالدخان ثم النظر إليها بالعيان. والأخير هو المسمّى بحق اليقين.

واليقين في درجته الأولى علمٌ، لكنه يتجلّى في قبول الحق والوقوف عند الشبهات. والعلم هو الذي يدور حول الواقع والحق، سواء أظهر على يد الخلق أم لا. وسواء ظهر للعيان أو غاب عن الأبصار. ومن الحق ما يقوم على حق آخر ويتقوّم به، كالكشف الصوري والمنامات الصادقة وخوارق العادات.

لكن اليقين في الدرجة الثانية يكون من الوضوح بحيث يستغني به صاحبه عن الاستدلال والأخبار. كمن يرى الطاولة فلا يقدر على الاستدلال عليها، لا لفقدان الدليل، بل لشدة وضوح الرؤية. وتتجلّى له الأخبار المحدِّثة عن الغيب بالعيان. ولهذا فإن شهوده يخرق حجاب الاستدلال (العلم) بعد زوال الإثنينية (المستدَل به والمستدَل عليه)، وعلم أن الأمر كالحقيقة والرقيقة.

وفي الدرجة الثالثة من اليقين يفنى عن رسمه ونفسه في الحقيقة بعد إسفار ضوء صبح الكشف. كما قال أمير المؤمنين علي عليه السلام في بيان الحقيقة:

"نور يشرق من صبح الأزل، فيلوح على هياكل التوحيد آثاره."

ثم يلتفت إلى أن اليقين هنا صفة قائمة بنفسه، وعليه القيام بحقها. فإذا تحقق بعلم الحق فني علمه في علم الحق. فيصير محمولاً بعد أن كان حاملاً (للصفة)، فترتفع عنه كلفة الحمل. وهناك يتم له الفناء التام.

الأنس

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [186/2]

الأنس عبارة عن رَوح القلب.

وهو على ثلاث درجات:

الأولى: الأنس بالشواهد؛ وهو استحلاء الذكر، والتغذّي بالسماع، والوقوف على الإشارات.

الثانية: الأنس بنور الكشف؛ وهو أنس منبعث عن الأنس الأول، تشوبه صولة الهيمان، ويضربه موج الفناء. وهذا الذي غلب قوماً على عقولهم، وسلب قوماً طاقة الاصطبار، وحل عنهم قيود العلم.

الثالثة: أنس اضمحلال في شهود الحضرة. لا يعبّر عن عينه، ولا يُشار إلى حدّه، ولا يوقف على كنهه.

تعليقات

الروح والراحة وركون النفس إلى حصن حصين لا يحصل إلا بالقرب والجمعية. وكلما احتجب الإنسان عن ربه، زاد ألمه ووحشته.

وللقرب درجات. أولها عند حصول شواهده وهي علامات السير. ومنها استحلاء الذكر واستعذابه، كالأنس بالعبادة والصلاة والدعاء، والاستغناء بالإشارات التي ترد من عالم الغيب، والتي تغذّي روحه كما يتغذّى بدنه بالطعام. وفيها أيضاً يعايش السالك تجارب الحياة، فيراها عبارة عن رسائل خطابية وجوابية من الرب المتعال. وكلها معانٍ تشير إلى الحقيقة، وتدعوه إلى قربه من وراء حجاب رقيق.

وفي الدرجة الثانية من القرب، يحصل الأنس بجمال الحق الذي يدركه السالك بالكشف. فالأنس الأول من الشواهد، والثاني من المشهود المتجلّي بجماله. ولذلك تشوبه صولة الهيمان، لأن الجمال يبهر العقل ويقهره بشدة نوريّته، وهو العقل المقيّد. فالانجذاب بقوة الحب إلى تجلّي الجمال يزيد الأنس، ولكون الكشف بهر العقل بنوره شابه قهر الهيمان.

ولا يزال هذا الكشف يقوى حتى يستغرق العقل، ويشرف بصاحبه إلى شط بحر الفناء، فيضربه موجه قبل استحكام الفناء وظهور سلطانه.

ومن كان في سيره العملي مهملاً لبعض الشرع، قد تغلبه صولة الهيمان فيفقد طاقة الاصطبار ويشطح ويقع في الفتنة.

وأهم ركن في الشريعة والذي يعطي العقل قوة الاحتمال، ما يتعلق بالجهاد وتحمل المسؤولية الاجتماعية، لما في مثل هذه الفرائض من أثرٍ كبير في القضاء على الأنانية وإزالة الأهواء التي هي منشأ أي شطح وفي أية مرتبة.

وفي الدرجة الثالثة يشتد القرب فيفني رسوم العبد عند شهود حضرة الأحدية التي من شؤونها قهر من سواه: ﴿لمن الملك اليوم لله الواحد القهّار﴾ ومثل هذا الأنس لا يمكن للعبارة أن تحدّه، لأنه من الأمور الذوقية. أو أن تشير إليه لأنه من المسائل الوجدانية. وكذلك لا يوقف على كنهه، لأنه إذا ظهر لم يبقِ غيره. وكل ما يذكر في بيانه لا يزيد إلا الإبهام في عرفانه.

الذكر

قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [24/18]

الذكر هو التخلّص من الغفلة والنسيان.

وهو على ثلاث درجات:

الأولى: الذكر الظاهر، من ثناء أو دعاء أو رعاء.

الثانية: الذكر الخفي؛ وهو الخلاص من الفتور، والبقاء مع الشهود، ولزوم المسامرة.

الثالثة: الذكر الحقيقي؛ وهو شهود ذكر الحق إياك، والتخلص من شهود ذكرك، ومعرفة افتراء الذاكر في بقائه مع ذكره.

تعليقات

فسّر الشيخ النسيان في الآية الشريفة بمعنى نسيان غير الله ونسيان النفس في الذكر، ونسيان الذكر في الذكر، ثم نسيان كل ذكر في ذكر الحق تعالى. والمعنى العام أن ذكر الله تعالى إنما يتحقق عندما ينسى الذاكر كل ما سواه، سواء كان نفسه أو شخصا آخر أو الذكر نفسه.

والذكر هو وجدان المذكور وحضوره بالقلب، واللسان ناطق عنه. فإن غفل القلب لا اعتبار للذكر، إلا إذا كان طريقاً لفتح باب الذكر القلبي، كما يُعلّم الأب ابنه الصغير النطق قبل فهم المعاني.

وحيث أن حضور الله لا يمكن أن يجتمع مع ما سواه، كان لا بد من نسيان ما عداه ليتحقق الذكر. وقد يكون السالك ملتفتاً إلى ذكره للحق تعالى أثناء الذكر فهذا الالتفات منافٍ للذكر وهو علّة فيه. فعليه أن يذهل عن كونه ذاكراً بل عن ذكره، حتى يكون هو الذاكر والمذكور.

ومما مرّ معك، وما سيأتي أيضاً، ينبغي أن تكون قد تعرّفت على تجلّي التوحيد في السير والسلوك، كما علمته متجلياً في الجهاد: ﴿وما رميت إذ رميت لكن الله رمى﴾.

والثناء هو التوجه إلى معاني أسماء الله، مثل الحي القيوم والغفور الحليم..

والدعاء هو الطلب كقوله: ﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾. والمأثور أفضل الدعاء،لأنه متضمن لجميع آداب الطلب.

وأما الرعاية، فكالصلاة مع حضور القلب، لأنها مراعاة للشرع والحقوق الإلهية. وكل فعل يقوم به العبد ممتثلاً متوجهاً، فهو نوع استحضار لله. ولهذا ورد أن خير الذكر العمل.

وفي الدرجة الثانية: ينفتح باب الذكر القلبي بدوام الحضور والمراقبة. فإن الحق تعالى يتجلّى على عبده بأنواع الواردات مذكراً إياه بنفسه. ولا يقف عند ما خفي من هذه الواردات إلا من أصبح قلبه ذاكراً. ومن آثارها الخلاص من الكسل والفتور عند الذكر والعبادة الذكرية، والبقاء مع الشهود الحاصل من ذلك التجلّي، وملازمة المسامرة المؤنسة، وكأن المولى يحادث عبده ويناجيه.

أما الدرجة الثالثة وهي المشار إليها بالذكر الحقيقي، فهي التي ترى فيها الحق سبحانه ذاكراً نفسه فيك وأنت المذكور بذلك. فإن أعلى مراتب الذكر أن يذكر الحق نفسه بلسان وجودك، فتكون مذكوراً بذكره، وتزول الغيرية. فإن نسبة الشهود إلى العبد افتراء، على أساس مباني التوحيد. لأنه ليس من بقاء مع حضوره سبحانه. وقد قال تعالى: ﴿اذكروني أذكركم﴾.

وهكذا نخلص إلى أن الذكر الذي يبدأ بالاستحضار وينتهي بالحضور، هو عبارة عن السير في مراتب الفناء والوصول إلى البقاء بالله. فإن شدة الحضور تزيل الغيرية وتفني السوائية.

الفقر

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ [35: 15]

الفقر اسم للبراءة من رؤية الملك والتملك.

وهو على ثلاث درجات:

الأولى: فقر الزهاد. وهو نفض اليدين من الدنيا جمعاً أو طلباً

وإسكات اللسان عنها ذماً أو مدحاً

والسلامة منها طلباً أو تركاً

وهذا هو الفقر الذي تكلموا في شرفه.

الثانية: الرجوع إلى الأزل بمطالعة الفضل. وهو يورث الخلاص من رؤية الأعمال، ويقطع شهود الأحوال، ويمحّص من أدناس مطالعة المقامات.

الثالثة: صحة الاضطرار، والوقوع في يد المنقطع الوحداني، والاحتباس في قيد التجريد. وهذا هو فقر الصوفية.

تعليقات

أصل الفقر شهود حقيقة الخلق في محضر الحق. وهي حقيقة العبودية. وجوهر العبودية أن العبد لا يملك نفسه، فكيف بما سواها! يروى أن أمير المؤمنين عليه السلام سمع ذات يوم رجلاً يقول: ﴿إنّا لله وإنّا إليه راجعون﴾ فقال: "إنّا لله إقرار على أنفسنا بالملك، وإنا إليه راجعون: إقرارٌ على أنفسنا بالهُلك." فالفقير هو الذي لا يرى الملك إلا لله. ومن لم يخرج من ملك نفسه فضلاً عمّا سواها، لم يحقق الله له من هذا الفقر شيئاً.

وهو يبدأ بنفض اليدين من جمع الدنيا وطلبها والحرص عليها، سواء أكانت مالا أم اعتبارا أم زينة. والإعراض عن ذكرها مدحاً أو ذماً (لحقارتها وضعتها)، لأنها لا تستأهل منه ذكراً، إلى أن يفرغ القلب منها فيسلم. لأن حبها يمرض القلب ويسقمه، والتعلق بها أساس كل داء.

وهذا هو الفقر الذي وردت في مدحه الروايات وهو الزهد.

وفي الدرجة الثانية إذا تم له الرجوع إلى عالم الأعيان الثابتة في حضرة الأزل، أدرك أن وجوده هو عين التفضل من الحق. فكيف لا تكون أعماله ومساعيه كذلك، وهي ظهورات عينه وأحواله. ولهذا لا ينسب العمل إلى ذاته، فينفض اليد من تملك الأعمال أو الشهود أو المقام. فالفقر في الدرجة الثانية هو البراءة من رؤية متعلقات الذات (من الأعمال والأحوال والمقامات).

وإذا تحقق له الفقر الثاني صح اضطراره، وهو إدراك عجزه المطلق وفقره الذاتي الوجودي. وصار اختياره ـ الذي كان يعتدّ به يوماً أنه أصل سلوكه ـ عجزاً. ولا فرار له من حكومة حضرة الجمع ومحل انقطاع الأغيار حيث لا يبقى اسم أو سوى: ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾.

والفقر هنا هو الفناء في أحدية جمع الذات، الذي ندبت إليه هذه الطائفة وجعلته شعارها.

الغنى

قال الله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ [8/93]

الغنى اسم للملك التام.

وهو على ثلاث درجات:

الأولى: غنى القلب. وهو سلامته من التعلق بالأسباب، ومسالمته الحكم، وخلاصه من الخصومة.

الثانية: غنى النفس. وهو استقامتها على المرغوب سبحانه، وسلامتها من المسخوط، وبراءتها من الرياء.

الثالثة: الغنى بالحق.

وهو على ثلاث مراتب: المرتبة الأولى: شهود ذكره إياك.

والثانية: دوام مطالعته أوليته.

والثالثة: الفوز بوجوده.

تعليقات

القلب مركز التعلقات. وأسوأ التعلقات التعلق بالأشياء على أنها أسباب للوصول إلى المبتغيات. وهذا التعلق هو أصل كل فقر، لأنه تعلق بالفقير المحتاج. قال الإمام زين العابدين عليه السلام في دعائه: "وقد علمت أن طلب المحتاج من المحتاج سفه من رأيه وضلة من عقله."

إن من تعلّق بالوهم والفقير لن يبقى على فقره فحسب، بل سيزداد فقراً. فمبدأ الغنى وبدايته سلامة القلب من التعلق بالأسباب. والحكم الإلهي هو القضاء والقدر الذي يظهر في تدبير العالم والحياة. وغالباً ما يضطرب القلب جراء حوادث الزمان لظنه أنها ليست من مصلحته. فإذا علم المرء أن كل ما يجري في الوجود إنما هو أساس الخير المطلق، لما اعترض في قلبه أو نازع القضاء، فيخلص من المخاصمة والسعي لانتزاع الأشياء من غيره، لأن كل ما قسّم هو على أساس ذلك الخير العميم.

أما غنى النفس فإنه يحصل من خلال تبعيتها للقلب والاتصاف بصفاته والتحرر من قيود البدن وحاجاته. وإنما يسبق القلب في الغنى لأنه إلى الانقطاع أقرب. أما النفس فإنها بطبيعتها تميل إلى كسب حظوظها. وهذا أصل فقرها واحتياجها. فإذا أقامها القلب على التوجه إلى مرغوبه الذي هو الحق تعالى، استقامت عليه. وسلمت من مرض السخط لكمال رضاها عن ربها بما وهب لها.

وعندها لن تطلب ما في أيدي الناس أو قلوبهم.

أما الغنى بالحق حيث الاتصاف بصفاته سبحانه، فإنه يتبين في مراتبه. ففي الأولى يشاهد ذكر الحق للعبد. وهو الذكر الأولي بتجلّي ذاته في صورة عين العبد. فإن ذكر الله لخلقه حاصل قبل أن يكون لهم وجود أو تحقق. بل ذكره لهم عبارة عن تحقق أعيانهم في حضرة علمه، قبل تحقق أعيانهم في حضرة الأكوان.

وفي المرتبة الثانية يدرك أوليته تعالى لكل شيء. فهو المبدأ لك وأنت به غني عن العالمين.

وفي الثالثة تفوز بوجوده بعد الفناء في أسمائه، فيكون بقاؤك به، وغناك بذاته، وذلك غاية الغنى. وقد قالوا: "إذا تم الفقر (وهو الفناء) فهو الله."

مقام المراد

قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾[28/86]

إنما أشاروا باسم المراد إلى الضنائن،

وللمراد ثلاث درجات:

الأولى: أن يُعصم العبد وهو مشرف على الجفاء بتنغيص الشهوات وتعويق الملاذ وسد مسالك المعاطب عليه إكراهاً.

الثانية: أن يضع عن العبد عيب النقص، ويعافيه من سمة اللائمة، ويملّكه عواقب الهفوات. كما فعل بسليمان في قصة الخيل حيث حمله على الريح الرخاء والعاصف، فأغناه عنها. وفعل بموسى عليه السلام حين ألقى الألواح وأخذ برأس أخيه، لم يعتب عليه..

الثالثة: اجتباء الحق عبده، واستخلاصه إياه بخالصته. كما ابتدأ موسى وقد خرج يقتبس لأهله ناراً فاصطنعه لنفسه وأبقى منه رسماً معاراً.

تعليقات

يفهم من هذا المقام أن الله تعالى يُظهر رحمته بما يفوق تفسير عقولنا من تحديد الأسباب، فيجتبي إليه من يشاء، ويسبق بإحسانه كل شيء. ومن تجلّت فيه هذه السابقة الحسنى فهو الذي نرى سبق كشفه لاجتهاده وجذبه لسلوكه. بخلاف المريد الذي يجتهد فيُكشف له، ويسلك حتى ينال الجذبة. فالمراد واصل بمحض الاجتباء والاصطفاء. وهو من الضنائن الذين ضنّ الله بهم على البلاء.

والدرجة الأولى من سبق الرحمة أن يعصم الله عبده عن المخالفة والمعصية مع كونه مائلاً إليها بالطبع. فيمنعه ذلك وهو مشرف على ما يؤدي إلى الجفاء مع ربه. وقد ذُكر أن من علامات توفيق العبد أن لا يتأتى بيده الشرور والمعاصي وإن سعى فيها. وذلك من آثار عناية الله به.

أما الدرجة الثانية، ففيها يظهر كيف أن الله تعالى وضع عن عبده عيب النقص وشينه، فعافاه ونجّاه من الملامة والتعيير. فإذا صدرت منه هفوة قلبها الله تعالى إلى خير. كمن استهدف رجلاً بطلق ناري فأصاب صيداً، وكان عاقبة ذلك أن أكلا معاً في رخاء! فقد تكون بعض الكمالات المقدّرة له ممنوعة عن الظهور بسبب بعض صفاته أو أفعاله السابقة، فإذا ابتلاه الله بهفوة تندّم عليها وانكسرت نفسه وأناب، فترتفع تلك الصفات المانعة وتظهر عليه عناية الله تعالى، وإذ بتلك الهفوة سبب لخير كثير!

أما الدرجة الثالثة فهي الاجتباء والاستخلاص، ليكون العبد لربّه لا يشاركه فيه غيره، وإن أبقى عليه رسماً يمشي به في الناس. قال الله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿واصطنعتك لنفسي﴾.

وهذه الدرجة هي التي يتم فيها ظهور السبق بالإحسان، لأن العبد ما دام دون ذلك فيمكن أن يرجع عمّا هو عليه. وما أكثر أولئك الذين اعتنى بهم الحق في بداياتهم، فانقلبوا على نعمته بعد طول سنين. ولا يعلم هذا الاصطفاء إلا من أخبره سبحانه به. وكم من العباد من نال هذا المقام وهو لا يدري.

قسم الأودية

<u>الاحسان العلم الحكمة</u>

<u>البصيرة الفراسة التعظيم</u>

<u>الإلهام السكينة</u>

<u>الطمأنينة الهمة</u>

إنما سُمّيت منازل هذا القسم أودية لأن معظم السير والسلوك يكون فيها. وفيها للسعي والاجتهاد قوة، وللعقل مدخل، وللشيطان تصرّف، وللكسب غلبة وظهور.

فلذلك قد يكون فيها مهالك ومخاوف، ويقع فيها معاطب ومهاوٍ، لازدحام الشبهات بحسب النظر العقلي، ولوجود مكائد الشيطان تزل عندها الأقدام، كما يكون في أودية البراري لمن يسافر فيها. ولولا التأييد الإلهي والبرهان القدسي والهداية الشرعية، لضل فيها أكثر السالكين، لكثرة الآفات. ولكن الله يهدي بنوره من يشاء.

الإحسان

قال الله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ (55: 60)

فُسّر الإحسان في الحديث الشريف بقوله: "أن تعبد الله كأنك تراه" وهي المشاهدة.

وهو على ثلاث درجات:

الأولى: الإحسان في القصد

بتهذيبه علماً، وإبرامه عزماً، وتصفيته حالاً.

الثانية: الإحسان في الأحوال

وهو أن يراعيها غيرةً، ويسترها نزاهةً ويصححها تحقيقاً.

الثالثة: الإحسان في الوقت

وهو أن لا تزايل المشاهدة أبداً

ولا تلحظ لهمّتك أمداً

وتجعل هجرتك إلى الحق سرمداً

تعليقات

ذكر الماتن في تصدير كتابه أن الإحسان اسم جامع يجمع أبواب الحقائق. وإنما كان جامعاً لها لأنها جميعاً مبنيّة على المشاهدة. فمن لم يبقَ عمله على هذا المعنى لم ينفتح له باب الوصول إلى المقصود.

أما الإحسان في القصد فأن يرى الله وهو يعلّمه كيف ينوي العمل ويقصده. فيهذّبه ويصلحه من خلال معرفة مراده تعالى الظاهر في شريعته. فإن الله تعالى قد جعل لتشريعاته وأوامره مقاصد، وأمرنا أن نقصدها في التزامنا، سواء كانت نيّة القرب أو قطع العلائق أو إقامة حكمه في الأرض. وعليه أن يبرم قصده بعزيمة قاطعة ويصفّيه عن شوب الرياء والنفاق والأغراض حتى لا يميل إلى غيره في أحواله.

والإحسان في الأحوال هو النظر إلى الله تعالى في ثمرات الأعمال التي تقع في النفس، فيغار عليها ويراعي حقها بأن يراها من الله سبحانه لا من عمله وجدّه، فإن العمل والاجتهاد أيضاً من الله وتوفيقه.

ويسترها عن الناس تنزهاً عن آفات العجب والادعاء. لأن الشهرة باب واسع للشيطان، والأحوال المعنوية نادرة الحصول بين الخلق، فيكون ظهوره بها واشتهاره سبباً لإقبال قلوبهم عليه.

وحيث أن للشيطان في الأودية تصرّفاً، فمن الممكن أن يدخل في أحواله فيخلط عليه فيها الحق والباطل. فعليه أن يصححها بإرجاعها إلى أصولها وقواعدها. وقد ذكر القوم جملةً من الموازين لتصحيح الأحوال، منها ما هو خاص يعرفه أهلها ومنها ما هو عام، إلا أن سعة الشرع ووضوح قواعد العقل في زماننا هذا أضحت مغنية شافية. ولا بأس بالاستعانة بأهل الخبرة فيما أبهم وصعب.

أم الدرجة الثالثة من الإحسان فهي التي تتعلق بوقتك مع الله، وهو استقبال تجلّيات الحق. فمن أحسن فيه لم يفارق المشاهدة ولم يعرض عن التجلّيات. وفي الدعاء عن أمير المؤمنين عليه السلام: "يا إلهي وسيدي ومولاي ومالك رقي يا من

بيده ناصيتي.. أسألك بحقك وقدسك وأعظم صفاتك وأسمائك أن تجعل أوقاتي في الليل والنهار بذكرك معمورة وبخدمتك موصولة، وأعمالي عندك مقبولة حتى تكون أعمالي وأورادي كلها ورداً واحداً وحالي في خدمتك سرمداً.." (مفاتيح الجنان دعاء كميل)

فإن من علّق همته بالحق لم يبقَ لها نهاية، ومن أقبل على تجلّيات الرب لم يعد لوقته معه حدٌّ.

العلم

قال الله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ [18: 65]

العلم ما قام بدليل ورفع الجهل.

وهو على ثلاث درجات:

الأولى: علم جلي يقع بعيان، أو استفاضة صحيحة أو صحة تجربة قديمة.

الثانية: علم خفي ينبت في الأسرار الطاهرة من الأبرار الزاكية بماء الرياضة الخالصة.

ويظهر في الأنفاس الصادقة لأهل الهمّة العالية في الأحايين الخالية للأسماع الصاحية. وهو علم يُظهر الغائب، ويغيّب الشاهد، ويشير إلى الجمع.

الثالثة: علم لدني؛ إسناده وجوده، وإدراكه عيانه، ونعته حكمه. ليس بينه وبين الغيب حجاب.

تعليقات

إذا أراد الله بعبده خيراً، فإنه يفيض عليه العلم الذي يقوم بالدليل ويرفع الجهل. وبمعزل عن ماهية المعلوم، فإن نفس هذا الإدراك الذي يتيقّن صاحبه أن خلافه محال من عطاءات الله الكبرى للعباد، والذي لولاه لم يهنأ لهم عيش.

فلو فرضنا إنساناً لا يعلم بشيء على اليقين والبرهان، أو كان علمه قليلاً جداً في جنب جهله لاستحالت حياته جحيماً. وهذا النوع من الناس نادر، بل قد لا يوجد!

فالإنسان يعيش وفق علمه الذي يقطع به. وعندما يعرض عليه شكٌ أو احتمال معتدّ به بخلاف ما أدرك فإن عيشه يضطرب. وقد أنعم الله على جميع عباده بأن زوّدهم بما يقدرون به على نيل هذا العلم.

ففي الدرجة الأولى يقدر على نيل العلم بواسطة المعاينة أو استفاضة الأخبار وتواترها أو من خلال التجارب المتكررة. وهذه الدرجة يشترك فيها كثير من الناس، وتختلف فيها علومهم بحسب توجهاتهم ومرادهم.

أما الدرجة الثانية فهي العلم الحاصل من العمل، ويسمّى علم الوراثة. ويتفجّر من منبع سر الإنسان. فمن التزم بقاعدة: "من عمل بما علم"، ورّثه الله علم ما لم يعلم. وإنما هو خفي بالنسبة إلى علوم الدراسة، لا بالنسبة لأهله. فإن الله تعالى إذا رأى في عبده البحث عن العمل والجانب التطبيقي من وراء كل علم، ألقى في سرّه علماً يجري في أنفاسه في الأوقات الخاصة. وقيمة هذا العلم أنه يكشف الغيب، ومن شدّة نوره يُذهل عما سواه، ويشير إلى عالم الوحدة التي هي أصل كل شيء.

وفي الدرجة الثالثة يكون العلم محض الموهبة النازلة من الرحمة الرحيمية الخاصة. وهو العلم الحاصل بذاته لا بغيره، ولا دليل عليه مما سواه. كما في قوله تعالى حاكياً عن إخوة يوسف عليه السلام ﴿أإنك لأنت يوسف﴾ وإليه الإشارة في قوله الصادق عليه السلام: "معرفة عين الشاهد قبل صفته ومعرفة صفة الغائب قبل عينه." ولا يوصف إلا بما يحكم على صاحبه.

الحكمة

قال الله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [269/2]

الحكمة اسم لإحكام وضع الشيء في موضعه.

وهي على ثلاث درجات:

الأولى: أن تعطي كل شيء حقه، ولا تتعدّى حدّه، ولا تعجله وقته.

الثانية: أن تشهد نظر الله تعالى في وعيده، وتعرف عدله في حكمه، وتلحظ برّه في منعه.

الثالثة: أن تبلغ في استدلالك البصيرة، وفي إرشادك الحقيقة، وفي إشارتك الغاية.

تعليقات

ليست الحكمة مجرّد العلم بمواضع الأشياء، بل هي وضع تلك الأشياء في مواضعها، وهي حدودها في عالم الوجود وحقوقها المشتقة منها وما يناسب كمالاتها وأوقاتها. فالحكيم لا يتجاوز حدّه ولا يتعدّى حقوق غيره، ولا يستعجل الأشياء قبل أوانها. وبمقدار ما نقدر على رعاية هذه الأمور نؤتى من الحكمة.

وفي الدرجة الثانية من الحكمة يشهد السالك المصالح من وراء العقوبات الإلهية ويعلم أسرارها حتى يرى أن كل ما منع عن الإنسان مما يطلبه هو خير وإحسان من الله اليه. ولو وصل إلى ما كان يتمنى لكان شراً له كما قال تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾ [2: 216]. فهذه درجة من معرفة المواضع يختص الله بها من يشاء من عباده. وهي طَور فوق طَور التسليم وثمرة له.

والبصيرة هي نور العقل. وذُكر أنها نهاية مراتب العقل في الاستدلال. فمن أُعطي البصيرة بلغ الغاية في الاستدلال ولم يقتصر على بعض الحقيقة. ولهذا، كان في إرشاده بالغاً حد الحقيقة. وهي هنا مرتبة جمع الأحدية. وإن كان التعبير يضيق، لكن الإشارة توصل اليها.

البصيرة

قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [12: 108]

البصيرة ما يخلّصك من الحيرة.

وهي على ثلاث درجات:

الأولى: أن تعلم أن الخبر القائم بتمهيد الشريعة يصدر عن عين لا تُخشى عواقبها، فترى من حقه أن تلذه يقيناً وتغضب له غيرة.

الثانية: أن تشهد في هداية الحق وإضلاله إصابة العدل، وفي تنوع قسمته رعاية البر، وتعاين في جذبه حبل الوصال.

الثالثة: بصيرة تفجّر المعرفة، وتثبت الإشارة، وتنبت الفراسة.

تعليقات

أول درجات البصيرة والخروج من الحيرة الاهتداء إلى الشريعة وصاحبها، فيعلم أنها طريق النجاة، فيلزم أن تؤدي حقها يقيناً، وتغضب لها تعظيماً وغيرة.

والدرجة الثانية ترتبط بعالم التكوين، فلا يرى البصير من وراء كل هذا التفاوت في التدبير والقضاء سوى العدل وإيصال النفع للعباد. حتى يصل إلى معاينة الجذبة الكامنة وراء كل شيء، والتي تريد جذبه إلى مقام القرب والوصال.

وفي الدرجة الثالثة تتفجر ينابيع معرفة الله بذاته وتقول "يا من دل على ذاته بذاته"، وتثبت الإشارة، لأن الحقيقة ألطف من أن يُعبّر عنها بعبارة. وإذ تفجّرت الينابيع وجرت مياه المعرفة نبتت من أرض القلب الطاهر الصافي فراسة النظر بنور الله.

قال شارح المنازل الملا عبد الرزاق "واعلم أن الفراسة نوعان: تفرّس أحوال الاستعدادات بنور البصيرة من غير استدلال، وهو تفرّس المعاني الغيبية في البواطن. والنوع الثاني الذي هو أعجب عند العوام وأهل البداية من أصحاب الرياضة والجوع هو تفرّس الصور في الظواهر. فمن صفت بواطنهم اتصل خيالهم بعالم المثال ومُنحوا كشف الصور والإخبار عن المغيبات.. وإنما همم أهل الله لا تتعلق بأحوال الخلق ولا تقف إلا عند شهود الحقيقة وتجليها في المظاهر بحسب استعداداتها، ولا تتفرغ إلى أحوال الخلق. فإن كشف الصور والاطلاع على أحوال الخلق نازل عن مقامهم، ولا يختص به أهل السلوك بل أهل الإيمان، فقد يشاركهم به غيرهم من أهل الملل..." (بتصرف)

الفراسة

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [15/75]

التفرّس هو استئناس حكم غيب من غير استدلال بشاهد، ولا اختبار بتجربة.

والفراسة على ثلاث درجات:

الأولى: فراسة طارئة نادرة، تظهر على لسان وحشي في العمر مرة، لحاجة مريد صادق إليها، لا يوقف على مخرجها، ولا يؤبه لصاحبها، وهذا شيء لا يخلص من الكهانة، وما ضاهاها، لأنها لم تشر عن عينٍ، ولم تصدر عن علم، ولم تسقَ بوجود.

الثانية: فراسة تُجنى من غرس الإيمان، وتطلع من صحة الحال، وتلمع من نور الكشف.

الثالثة: فراسة سرية لم تجتلبها رويّة، على لسان مصطَنع تصريحاً أو رمزاً.

تعليقات

الفراسة معرفة ما غاب من غير استدلال بشاهد أو تجربة، كالاستدلال بأشكال الأعضاء على هيئات النفس والأخلاق.

والدرجة الأولى من الفراسة تكون طارئة ولا يكون صاحبها من أهل الكرامات، بل قد يكون ممن يتصل بالجن فيعلم من الغيب ما لا دليل عنده عليه. وفيها تكهّن، لأن المتفرس لا يخبر عن عيان، بل يبقى في نفسه شك منها، ولا ترتوي من الشهود المسمّى عندهم وجوداً. فهي فراسة لم تحصل من التصفية والتهذيب.

لكن الدرجة الثانية منها تُعد من ثمار الإيمان وآثار الأحوال والواردات وهي متصلة بأنوار الكشف.

وفي الدرجة الثالثة تنبع الفراسة من مقام السرّ، وتحصل من دون تفكر أو رويّة. وقد عبّر بظهورها على لسان مصطنع لقوله تعالى بشأن موسى عليه السلام: ﴿واصطنعتك لنفسي﴾. وقد يصرّح بها حيث يقتضي المقام أو يرمز لتنزيه نفسه عنها، لأن المقام أعلى وأجل منها.

التعظيم

قال الله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [13/71]

التعظيم: معرفة العظمة مع التذلل لها.

وهو على ثلاث درجات:

الأولى: تعظيم الأمر والنهي. وهو أن لا يعارضهما بالرُخَص المجافية، ولا يتعرّض لهما بتشديد مُغالٍ، ولا يحملهما على علّة توهن الانقياد.

الثانية: تعظيم الحكم من أن يبغي له عوجاً أو يدافعه بعلم أو يرضى عنه بعوض.

الثالثة: تعظيم الحق، وهو أن لا تجعل دونه سبباً أو ترى عليه حقاً أو تنازع له اختياراً.

تعليقات

أول مراتب التعظيم ودرجاته تعظيم أوامر الحق تعالى ونواهيه. وهذا ما يتجلّى باجتناب ما فيه رخصة إذا كانت تؤدي إلى معصية. وأهل السلوك هم أرباب العزائم، فإن نزلوا إلى ما رخّص الله لهم كان جفاءً منهم إلا إذا كانت رخصةً وإباحةً اقتضاها ولي الشريعة. فالإباحة الاقتضائية يكمن وراءها مصلحة لا يعلمها إلا الله.

ومن الأمثلة على ما ذُكر قول رسول الله(ص) عن الله تعالى: "من أحدث ولم يتوضأ فقد جفاني...." ولا شك أن ذلك ليس بمعصية بالنسبة للعوام، وإن كان من الجفاء عند المريدين.

ويتجلّى تعظيم الأوامر والنواهي أيضاً بعدم التشدّد فيهما إلى درجة المغالاة، لأنه نوع مزايدة على الله تعالى، فينقلب التعظيم إلى رعونة وتمرّد. وهناك الكثير من الحكم المخفيّة في الأحكام، فلا ينبغي أن نحصر الحكم الفلاني بهذه العلّة أو تلك مما يؤدي إلى إضعاف الانقياد له، كمن يعلّل تحريم الخمر بمجرّد الإسكار ويقول: إذا لم تبلغ حدّ الإسكار لم تكن حراماً، فيضعف انقياده.

والدرجة الثانية ترتبط بالقضاء الإلهي الساري في كل العالم. فمقتضى تعظيمه أن لا يبتغي له عوجاً ومخالفة. وقد يخالف القضاءُ علمه فيعجز عن تفسيره. وقد يخالف مصلحته الظاهرة فيرضى عنه بديلاً. فالتعظيم المرتبط بأفعال الحق سبحانه عبارة عن التسليم له والرضا به والإيمان بأنه المصلح للكل والمقيم لهم على الصراط المستقيم.

وعندها يصبح مؤهلاً للدخول في الدرجة الثالثة من التعظيم، وهي تعظيم الله بأسمائه وصفاته وذاته بمقتضى التوحيد، فلا ترى مقابله سبباً، بل كل الأسباب منه، وكل نعمه وثوابه تفضّل، فلا حقّ لأحد عليه. كيف؟! والكل منه. وحينها يبلغ درجة العجز ومنتهى الفقر. فكيف ينازع الله باختياره، وقد جعله مختاراً؟ وأحب له إفناء اختياره في اختياره سبحانه!

الإلهام

قال الله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [27/40]

الإلهام مقام المحدَّثين، وهو فوق مقام الفراسة، لأن الفراسة ربما وقعت نادرة أو استصعبت على صاحبها وقتاً واستعصت عليه، والإلهام لا يكون إلا في مقامٍ عتيد.

وهو على ثلاث درجات:

الأولى: إلهامٌ يقع وحياً قاطعاً، مقروناً بسماع أو مطلقاً

الثانية: إلهام يقع عيناً، وعلامة صحته أنه لا يخرق ستراً ولا يجاوز حداً ولا يخطئ أبداً.

الثالثة: إلهام يجلو عين التحقيق صرفاً، وينطق عن عين الأزل محضاً.

وللإلهام غاية تمتنع الإشارة إليها.

تعليقات

ذاك الذي كان عنده علم من الكتاب إنما كان علمه بطريق الإلهام. والمحدّثون هم أهل المكاشفة.

أما الوحي فهو الإشارة الخفية، وكذلك الإلهام، وإن اختلف موضعه في النفس. والإلهام في الدرجة الأولى يقطع الشك، سواء أكان مسموعاً أم لا.

وفي الدرجة الثانية ينتقل من الإشارة إلى المعاينة. وعلامة صحته أن صاحبه لا يخرق الستر ولا يتجاوز حدّه أو يعتدي على غيره. ولا يخطئ ولو مرة واحدة، وإلا كان كهانة.

وفي الدرجة الثالثة يصبح الإلهام سبباً لرفع الحجاب والغشاوة عن عين الحقيقة التي تتجلّى في عالم الأعيان الثابتة وهو المشار إليه أيضاً بعين الأزل، فلا تكون الأغيار من العوالم، وغيرها التي هي تنزلات الحقيقة حجاباً.

فمن شاهد الحقائق من العوالم المتنزلة، فإنه وإن أصاب لكن شهوده وإدراكه يبقى ناقصاً حتى ترتفع عن عين بصيرته حجب الخلق ويدرك الأشياء في الحضرة العلية للذات المقدسة، فيراها بحقيقتها.

ويتبيّن من هذا الكلام أن الإلهام قد يبلغ بصاحبه مقام الكشف التام.

ومن التدبّر فيما مرّ يُعلم لماذا كان الإلهام من الأودية، فإن أحواله وآثاره في النفس قد تتشابه مع أحوال أخرى، للشيطان فيها تصرّف. ولا بد للسالك من ميزان لتمييز الإلهام عن غيره من إلقاءات الشيطان أعاذنا الله منه.

السكينة

قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [48: 4]

السكينة اسم لثلاثة أشياء:

أولها: سكينة بني إسرائيل التي أُعطوها في التابوت. وروى أهل التفسير هي ريح هفّافة لها وجه كوجه الإنسان. وفيها ثلاثة أشياء: هي لأنبيائهم معجزة ولملوكهم كرامة وهي آية النصرة تخلع قلوب العدو بصوتها رعباً إذا التقى الصفان للقتال.

ثانيها: هي التي تنطق على ألسنة المحدّثين، ليست شيئاً يُملك، إنما هي شيء من لطائف صنع الحق، يُلقي على لسان المحدَّث الحكمةَ، كما يلقي الملكُ الوحيَ على قلوب الأنبياء، وتنطق المحدَّثين بنكت الحقائق مع ترويح الأسرار وكشف الشبهات.

ثالثها: هي التي أنزلت في قلب النبي(ص) وقلوب المؤمنين، وهي شيء يجمع نوراً وقوة وروحاً. يسكن إليه الخائف ويتسلّى به الحزين والضجر، ويستكين له العصي والجريء والأبي.

وأما سكينة الوقار التي تراها نعتاً لأهلها، فإنها ضياء السكينة الثالثة.

وهي على ثلاث درجات:

الأولى: سكينة الخشوع عند القيام بالخدمة رعايةً وتعظيماً وحضوراً.

الثانية: السكينة عند المعاملة بمحاسبة النفس، وملاطفة الخلق ومراقبة الحق.

الثالثة: السكينة التي تنبت الرضا بما قسّم، وتمنع من الشطح الفاحش، وتقف صاحبها على حد الرتبة. والسكينة لا تنزل قط إلا في قلب نبي أو ولي.

تعليقات

قـال الله تعالى: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ [26/48].

أصل السكينة هو نور الفطرة الذي يكشف الحجب ويزيد الإيمان. ولقوة اليقين الحاصل فيها تعطي قوة للنفس وراحة يأمن فيها الخائف ويتسلّى بها الحزين الضجر.

وإذا نال العبد سكينة خضع له الصعب المستصعب(كبعض الرياضات الشاقة) وزالت ظلمة النفس عن المتجرّئ على المعاصي والمخالفات. وأعين على الذي يأبى أمر الحق أو الولي الأوامر وتسهل الموافقة والطاعة.

وسكينة الوقار هي سكينة العظمة التي كانت نور عظمة الحق تعالى المنزلة على عباده، فعظّمهم الخلق ووقروهم. وهي تحصل حين استقرار السكينة وتمكّنها في القلب.

والدرجة الأولى من السكينة تحصل من جرّاء القيام بالخدمة والعبادة والطاعة برعايتها وتعظيمها واستحضار نظر الحق تعالى. فإن من عظّم العبادة أورثه الله تعالى الخشوع فيها. وتعظيمها يكون برعاية أحكامها وتوجّه القلب فيها إلى المعبود والمقصود.

أما الدرجة الثانية فهي التي تحصل بتهذيب النفس وإصلاحها وتحسين الخُلق بالرفق ومداراة الخلق وتحمّل أذاهم والاكتفاء بمحاسبة النفس بمراقبة الحق تعالى.

وبعدها تكون السكينة سبباً في حصول الرضا بما قسم الله لعباده، وقد قيل أنها تختص بأهل الصحو من العرفاء لأنها تمنع من سوء الأدب مع الله وتجاوز حد العبودية، لشهود الحقيقة والاطلاع على سر القدر.

فمن تمّ صحوه، وخلص من بقية السكر، ونزلت في قلبه السكينة، ستر الحقيقة بالوقوف على حد العبودية ورعاية المراتب والمقامات.

وإنما خصت السكينة الثالثة بالأنبياء والأولياء لأن درجتها الأولى ابتدأت من كمال الإيمان المعبر عنه بمقام الإحسان: "أن تعبد ربّك كأنك تراه". وهو المشاهدة، يكاد صاحبها يُرفع عنه حجاب الإنية.

الطمأنينة

قال الله تعالى: ﴿يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّة﴾ [89: 27]

الطمأنينة سكون يقويه أمن صحيح شبيه بالعيان وبينها وبين السكينة فرقان:

أحدهما أن السكينة مفاجئة تورث خمود الهيبة أحيانا، والطمأنينة سكون أمن فيه استراحة أنس.

ثانيهما: أن السكينة تكون نعتا وتكون حينا بعد حين والطمأنينة نعت لا يزايل صاحبه.

وهي على ثلاث درجات:

الاولى: طمأنينة القلب بذكر الله تعالى، وهي طمأنينة الخائف إلى الرجاء والضجِر إلى الحُكم والمبتلى إلى المثوبة.

الثانية: طمأنينة الروح في القصد الى الكشف وفي الشوق الى الوعد وفي التفرقة الى الجمع.

الثالثة: طمأنينة شهود الحضرة الى اللطف وطمأنينة الجمع إلى البقاء وطمأنينة المقام إلى نور الأزل.

تعليقات

الطمأنينة تنشأ من السكينة وتفضل عليها. والأمن الصحيح لا يكون إلا من اليقين لكنه يقين شبيه بالعيان ويختلف عن اليقين العلمي.

والفرق بين السكينة والطمأنينة أن السكينة تأتي بغتة، فتصول على قلب العبد عند استيلاء نور العظمة عليه، فتخمد فيه حرارة الهيبة التي كادت تحرقه. أما الطمأنينة فإنها ثابتة لا تأتي بغتة او حينا بعد حين، ولا يكون الانس فيها مجرد تسكين القلب من الهيبة. لهذا قيل إنها من نور الجمال.

والفارق الثاني أن السكينة قد تكون نعتا لكن الطمأنينة لا بد أن تكون كذلك.

أما الدرجة الأولى من الطمأنينة فإنها تتجلى في القلب نتيجة ذكر الله تعالى، فتنقله من حالة الخوف الى الرجاء. وتحوله من الضجر والسأم إلى مشاهدة الحكم والقضاء الالهي وهو أن الله قضى أن يعاني ويقاسي من التكاليف وأمثالها. وهذه الطمأنينة تكشف عنه عناء البلاء بإراءة الثواب، فلا يستغرق في البلاء والشدة، بل يطمئن إلى الثواب والجزاء.

وفي الدرجة الثانية يطمئن السالك في سيره إلى الحق إلى النتيجة. لأنه ما دام قاصدا متوجها في سيره إلى الحق مجتهدا قبل الكشف كان مضطربا يخشى عاقبة أمره. فإذا بلغ الكشف أطمأنت روحه إليه ووجد مقصوده. كما أنه إذا كان مهجورا غائبا غلبه الشوق، فتأتي الطمأنينة لتسكنه إلى الوعد الذي لا يخلف. وما دام محجوبا عن الجمع كان مضطربا، فيُرفع عنه الحجاب وتضمحل امامه كثرات التفرقة، فيُشق له طريق إلى حضرة الجمع ويطمأن إليه.

أما الدرجة الثالثة فهي التي يطمئن فيها إلى لطف الجمال عند مشاهدة حضرة الأحدية، لأن الجمال مخصوص بالوجه الباقي بعد فناء كل شيء. ولما اطمأن إلى لطف الجمال واستحكم في المقام رأى في أحدية الذات تفاصيل الأسماء وشهد الكثرة في عين الوحدة، وعلم أن البقاء بعد الفناء. فيشهد أن بقاء الكل ببقاء الحق. وفيها طمأنينة إلى نور الأزل بمعاينة عينه الثابتة في أزلية الحق تعالى.

الهمة

قال الله تعالى: ﴿ما زاغ البصر وما طغى﴾(17/53)

الهمة: هي قوة تملك انبعاث العبد لطلب المقصود طلباً صرفاً.

وهي على ثلاث درجات:

الأولى: همّة تصون القلب من خسّة الرغبة في الفاني
وتحمله على الرغبة في الباقي
وتصفيه من كدر التواني

الثانية: همة تورث أنفة من المبالاة بالعلل
والنزول على العمل، والثقة بالأمل

الثالثة: همة ترفع عن الأحوال والمقامات
وتزري بالأعواض والدرجات
وتنحو عن الصفات إلى الذات

تعليقات

الهمة تجذب إلى الحق عما سواه وتجمع القوى إليه سبحانه. وكلما قويت الهمة اشتد الانجذاب وقل الالتفات والمبالاة بما سواه، مهما كان. وصاحبها لا يقدر على اللبث والتمهل، ولا يمكن أن يلتفت عن مقتضاها، وتوشك أن تصير حباً.

وفي الدرجة الأولى تنقل القلب من التعلق بما يزول ويفنى، ليرغب بما يبقى. ومثل هذه الهمة تزيل كدورات التقصير والتفريط والتباطؤ. فإن مرجع الكسل دوماً إلى انحصار التعلقات بما في الدنيا.

أما الدرجة الثانية من الهمة فإن صاحبها يأنف من كل ما سوى الحق تعالى ويراها آفات الطريق إليه، سواء كانت نفسه أو الثواب المرجو أو المقامات والكرامات. ولا ينزل إلى عمله فينشغل به لأنه لا يرى له قدراً في جنب فضل الله وحق طاعته. ولا يثق بالأمل الذي ينبعث من نفسه ويدعوه إلى الفتور والكسل.

وفي الدرجة الثالثة تترفع الهمة عن كل شؤون النفس في مراتب كمالها لأنها لا تطلب سوى الذات. فلا تشغلها تجليات الصفات رغم عظمتها عن طلب شهود الحق والفناء في عين الأحدية.

وعند التأمل في هذه الدرجات التي تمثل أهم مراحل السلوك نجد أن الهمة تعبر بالسالك جميع الموانع، وهي مختصَرة في ثلاثة: الدنيا، الطريق، العقبى.

قسم الأحوال

المحبة ـ والغيرة ـ والشوق

والقلق ـ والعطش ـ والوجد

والدهش ـ والهيمان

والبرق ـ والذوق

عندما يكون السالك في قسم الأودية يكون الكسب عليه غالباً، ثم ينتقل بالتدريج إلى ما يظهر فيه قوة الجذب والموهبة حتى تساويا، ثم إلى ما غلبت فيه الموهبة واختفى فيه الكسب في الوهب كالطمأنينة والهمة حتى ينتهي إلى قسم الأحوال التي هي مواهب محضة.

وابتدأ بالمحبة، التي هي نتيجة محبة الحق عبده، ومن سار بقدم المحبة ارتفعت عنه مشقة السعي والجهد، وكان سيره مقروناً باللذة والبهجة على مركب الوداد، بين سائق من التوفيق، وقائد من التحقيق بسابقة العناية ونور الكشف والهداية.

المحبة

قال الله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ منْكُمْ عَنْ دينه فَسَوْفَ يَأْتي اللّٰهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَ يُحِبُّونَهُ﴾ [54/5]

المحبة هي تعلّق القلب بين الهمّة والأنس في البذل والمنع تفريداً. والمحبة أول أودية الفناء، والعقبة التي ينحدر منها إلى منازل المحو. وهي آخر منزل تلاقي فيه مقدمة العامة ساقة الخاصة، وما دونها أغراض لأعواض.

والمحبة سمة هذه الطائفة وعنوان الطريقة ومعقد الانتساب.

وهي على ثلاث درجات:

الأولى: محبة تقطع الوساوس، وتلذذ الخدمة، وتسلّي عن المصائب.

وهي محبة تنبت من مطالعة المنّة، وتثبت باتباع السنة وتنمو على الإجابة للفاقة.

الثانية: محبة تبعث على إيثار الحق على غيره، وتُلهج اللسان بذكره، وتعلّق القلب بشهوده.

وهي محبة تظهر من مطالعة الصفات، والنظر في الآيات، والارتياض بالمقامات.

الثالثة: محبة خاطفة تقطع العبارة، وتدقق الإشارة، ولا تنتهي عند النعوت. وهذه المحبة هي قطب هذا الشأن، وما دونها محاب جرت على الألسن، وادّعتها الخليقة، وأوجبتها العقول.

تعليقات

قال الإمام الصادق(ع): "وهل الدين إلا الحب"

لما كان آخر المنازل من الأودية الهمّة وهي مبنية على الكسب المختفي في نور الجذب وجب أن تستمر هذه الهمّة إلى المحبة لأنها نهاية شدة الطلب، ونهاية الطلب إنما تكون بالوصول إلى المطلوب، وهناك نهاية نور التجلي، ويلزم الأنس بجمال المحبوب وحده، وتحدث بينهما المحبة.

فالتعلق من أحكام الهمّة والأنس من أحكام التجلي. والمحبة منها وبينهما. والبذل بذل النفس للمحبوب، فيفنى المحب في أفعاله وصفاته وذاته، ويذهب عن ملاحظة الثنوية بالكامل، ليكون من السابقين كما في الحديث: "سيروا، سبق المفردون".

فالمحبة أول أودية الفناء لأنها تقتضي الوصل. وأول ما يفنى من المحب خواطر التعلّق بالغير. وهو عبور العقبة نحو الأودية التي تمحو اسمه ورسومه من القيود والحدود والتعلقات.

والمراد من العامة عند هذه الطائفة أهل الحجاب، الذين يعرفون الحق بغيره. فأفضل هؤلاء هو الذي يستعد للدخول في منزل المحبة. وبالمحبة يخرج المحبوب من الحجاب، وتزول الدوافع نحو الأجر والثواب؛ فلا يعبد الله طمعاً بالجنة أو خوفاً من العذاب، بل لأنه الله.

ولما كانت نسبة الخلق إلى الحق هي العبودية، فإن هذه النسبة لا تنعقد إلا بالمحبة. فبالحب الذاتي ظهر الوجود، وبالعشق جبلت فطرة الكائنات، وبه ترجع النفوس المطمئنة إلى ربها وأصلها. ولولا هذا الحب ما رجع أحد، ولا آب.

وقد تختفي هذه المحبة فلا يعلم بها صاحبها الذي بها يسلك إلا بعد حين حيث يبلغ معالي الدرجات. وإذا كان السلوك كله من أسفل سافلين إلى أعلى عليين بواسطة هذا الحب المودع في أعماق السالكين، فلا تخلو البدايات منه، فضلاً عما يليها. لكن لغلبة الكسب والنظر لا تظهر الآثار التامة للمحبة إلا حين عبور قسم الأودية.

ففي الدرجة الأولى تقطع المحبة على الشيطان وساوسه التي تدعو إلى السخط على الحق تعالى. ومن وجد في نفسه لذة الطاعة، فليعلم أنها من آثار محبة الله. وإذا كان الشيطان قاطع طريق الله ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، فإن المحبة جاذبة إلى الله. ولهذا كان السير إلى الله كله محبة، وإن اختفت على الجاهل آثارها.

ولما كانت المصائب لأجل قطع العلائق، وقد قيل أن المصائب على قدر وجود العلائق ومعرفة التوحيد، فإن من صبر في المصيبة وتسلّى كان في الدرجة الأولى من المحبة، لأن التعلق بالله غلب حين تسلّى التعلق بما سواه. ولو لم تكن المحبة لجزع واكتأب.

وحيث أن الله تحبب إلى عباده بمنَنه، ولأن الإنسان محب لمن يمنّ عليه، فإن المنّة أرض تنبت فيها المحبة. ومن لم يجد في نفسه آثار المحبة المذكورة، فليطالع نعم الله عليه، ولينظر في كثرة أياديه عنده: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لا تُحْصُوها﴾.

ولا تثبت المحبة إلا بمحبة الله عبده. وطريقها قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾. لأن طريق الرسول هي الدين الذي أشار إليه الصادق(ع): وهل الدين إلا الحب في الله.

فالحب نبتة تنبت في أرض النعم، وتثبت بواسطة الطاعة، وتنمو على الاحتياج إلى المحبوب.

فكلما ازداد الاحتياج إلى المحبوب، قوي التوجه إليه والتردد عليه. ومن أكثر طرق الباب، أوشك أن يُفتح له. ولهذا جبل الحق تعالى فطرة كل موجود بطينة الحب والفقر. ولو أغنى الله عباده لبغوا في الأرض فنسوه ولم يرجعوا إليه.

وفي الدرجة الثانية يؤثر الحق على غيره، ويلهج لسانه بذكره. يذكره أينما كان من شدة غلبة الحب على القلب. والمحبة لا تطاوع الكتمان. وهنا يصبح شهود المحبوب وراء آياته غاية المحب، فيطلب سبحات جماله.

فهذه المحبة تنبعث من مطالعة صفات المحبوب وتجليات ذاته والنظر في آياته التي تدل عليه. وتنمو بواسطة عبور المقامات السابقة التي قامت على الارتياض الشرعي.

أما الدرجة الثالثة، فهي محبة تخطف المحب من أودية فرق الصفات وتكثر الأسماء إلى حضرة الجمع والتوحيد الذاتي. فلئن كانت الصفات مما يشار إليه

بالعبارات، فإن مقام الغيب المطلق فوق النعوت والإشارات، لأنه مقام لا اسم ولا رسم. فكيف تقدر عليه العقول أو تحيط به الصفات. قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: "وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه."

وإذا فني المحب في الأفعال والصفات ثم شهد فناء الأفعال الحقة والصفات الكبرى في عين الذات، فلا يبقى له عين تحب وذات تشهد. فالمحب والمحبوب ليس سوى الله، وقد أحبّ ذاته في مرائي صفاته.

وإنما كانت المحبة عنوان الطريقة لأنها أقرب شيء إلى التوحيد والفناء وهما حقيقة الحقائق.

كلام في الحب

فليُعلم أن الحب تعلّق خاص وانجذاب فطري إلى الكمال الحقيقي. وإنما أسدل الحجاب على هذا المحبوب الجبلّي بسبب الأوهام والشهوات. وإن كل تعلّق أو سعي للتملّك ليس من الحب في شيء، إلا أن يكون نابعاً من إرادة المحبوب.

وإن كل الكائنات قد جُبلت على أساس هذا العشق الفطري، ولهذا فإن الجميع يطلبونه في أناء الليل والنهار. لكن حجب الأوهام وأستار الأهواء تصور لهم المحبوب غير المحبوب الواقعي. وتغلبهم الشهوات فيسعون لتملك هذا المحبوب. ومن هنا تنشأ محنة المحبة وعذاباتها. لا من أصلها بل من أمور طارئة عليها.

وإذ جعل الحق تعالى فينا عشقاً لغيره أو حباً لما سواه، فلأجل أن يكون ذلك طريقاً إليه. فما أكثر دروس الحب لو كنا نعقل. ولهذا أيّد الله سبحانه عباده بالعقل ليميزوا به المحبوب الواقعي عن غيره، وليتجاوزوا الحب الفاني إلى الحب الأزلي. فإذا قطعوا بالعقل أودية التفرق ووصلوا إلى محض الحبيب طار العقل وصار روحاً.

الغيرة

قال الله تعالى: ﴿رُدُّوها عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَ الْأَعْناقِ﴾ [33/38]

الغيرة سقوط التحمّل ضناً والضيق عن الصبر نفاسة.

وهي على ثلاث درجات:

الأولى: غيرة العابد على ضائع يسترده
ويستدرك فواته
ويتدارك زواله

الثانية: غيرة المريد على وقت فات. وهي غيرة قاتلة.
فإن الوقت سريع الغضب، أبي الجانب، بطيء الرجوع.

الثالثة: غيرة العارف على عين غطّاها غين
وسر غشيه رين
ونفَس علق برجاء أو التفت إلى عطاء.

تعليقات

الغيرة من أحكام المحبة وفروعها. وبها يضن بمحبوبه أن تتعلق بغيره محبة، فيكون الغير محبوباً مثله. فلا يقدر على تحمّل ذلك نفاسة وعزة لمحبوبه. وغيرة الحق تعالى لا تقبل أن يكون محبوباً مع غيره إلا أن يكون الغير مظهر جماله. ولهذا لم تعارض محبة أوليائه حبه: "من أحبكم فقد أحب الله". وغيرة العبد أن يرفض حباً غير حب الله إلا أن يكون مطلوباً لله. وهذه غير الغيرة التي تكثر على ألسنة الناس.

وحيث يرتقي السالك من درجة العابد إلى مقام المريد، ومنه إلى رتبة العارف، فإن الغيرة تكون بحسب ما يشغله من المحبوب. فإن العابد لا يرى طريقاً إلى محبوبه إلا بالعبادة والطاعة، حتى يصبح محبوبه هو العبادة والعمل. فغيرته على محبوبه أن يحفظ عباداته وأعماله من الضياع والفوات. ويدفعه ذلك إلى استرداد ما ضاع من خلال القضاء ورد المظالم وأمثالها وحفظ أوقاتها وملاحظة مناسباتها قبل أن تفوت، لأن لكل عمل وقتاً يختص به. وإذا فقد حظاً من عبادة سعى لتدارك ذلك بعمل آخر عسى أن يدرك حظه الذي فات.

أما المريد فإن له مع محبوبه حالات هي المعبّر عنها بالأوقات. وهي واردات الجمال وتجليات الحسن الخالص. فالوقت بالنسبة للمريد هو ميقات اللقاء وموعد المسامرة في الحضور. وحيث أن محبوبه كل يوم هو في شأن، فكيف يمكن للمريد أن يتدارك الوقت الذي فات؟! لهذا تكون غيرة المريد قاتلة.

ويُعلم المراد من خلال مثال من الحياة. فافرض أن محبوبك قد أعد كل العدة والاستعداد للقائك وهيأ كل ما تحب لميعادك، لكنك لم تحضر. كيف سيكون حاله؟! وهل يمكن احتماله؟! لهذا قال أن الغيرة قاتلة لأن الوقت لا يرجع

بسهولة إذا لم نحسن استقباله. ومن صفاته أنه سريع الغضب في مقام الغيرة لا ينقاد بسهولة ولا يلين.

أما غيرة العارف صاحب الشهود فإنها تنبع من التعلق بالحق نفسه إذا غطّاه مرآة كدرة. فإن الخلق حجب الحق من وجه مهما بلغوا إلا أن يكون لهم الفناء التام. فسرّ العارف هو محل تجليات الحق المحبوب وغيرته من أن يغشاه رين السوى والغيرية، وأنفاسه هي سبحات الجميل على الإطلاق. فإذا تعلّق بثواب أو مقام غيره، تقطّعت أنفاسه وحرم من جمال محبوبه.

الشوق

قال الله تعالى: ﴿مَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ﴾ [5/29]

الشوق هبوب القلب إلى غائب.

وهو على ثلاث درجات:

الأولى: شوق العابد إلى الجنة، طلبا للأمن من الخوف، والفرح بعد والظفر بالمأمول.

الثانية: شوق إلى الله عز وجل، زرعه الحب الذي نبت على حافات مننه وتعلق قلبه بصفاته المقدسة، فاشتاق إلى معاينة لطائف كرمه وآيات برّه وأعلام فضله.

وهذا شوق تبرد حرارته العطايا، وتخالجه المسرّات، ويقاومه الاصطبار.

الثالثة: نار أضرمها صفو المحبة، فنغّصت العيش، وسلبت السلوة، ولم يطفئ لهبها أية تعزية حتى اللقاء.

تعليقات

الشوق حركة الروح في طلب الوصال. ووصاله نهاية الأجل بالفناء الذي هو الموت الحقيقي. ولا يكون الشوق إلا لغائب (سواء لشخصه أو لبعض تجلياته). وحيث أن مذهب هذه الطائفة مبني على المشاهدة، وأن العالم كله حجاب الحق وأن ما سواه تعالى غائب، فإن الشوق إلى الله علة وآفة الحضور. فلا يشتاق إلى الله إلا من كان الله غائباً عنده. ولهذا قيل أن القرآن لم يأت على ذكره.

لكنه أول مبدأ للحركة الحبية، ولهذا كان الشوق إلى الله أعلى من مقام العبّاد. وهو الذي يدفع نحو الفناء، ورؤية العبادة والعمل حجاب يوقف صاحبه دون الفناء.

وإذا أراد الله بعبده خيراً رزقه حسن العبادة، وفيها يعمل شوقاً إلى الجنة وفراراً من العقاب، يحدوه الأمل والرجاء، وبعد أن أقنطه الشيطان وأبعده الذنب.

فالشوق إلى الجنة مقدمة الشوق إلى الله عند المحجوبين. والجنة أعظم منن الله بالنسبة إليهم. ونعيمها هو النعيم الأكبر. فمن رزق هذا الشوق رتع في أراضي النعم التي تنبت نبات المحبة. والمحبة تكون في البداية شوقاً. وهذه هي الدرجة الثانية.

وفيها ينتقل من الإنعام إلى المنعم، ومن الإحسان والجود إلى المحسن والجواد وأمثالها. فليس المحبوب المشتاق إليه هنا ذات الله ولا صفاته العليا، بل أسماءه الثواني التي هي من أسماء الأفعال.

ولما كان هذا الشوق معللاً بعلّة أغراض النفس وطلب الحظ واللذة(لأنه نشأ من مطالعة المنة والنعمة) ذكر أنه شوق تسكّن حرارته المبرات والنعم وتختلط به المسرّات، فيتسلى عن المحبوب بهداياه. ويقدر على مقاومته بالاصطبار الناشئ عن ذكر النعم والعطايا. فأعظم ما فيه من علّة أنه جعل الحق واسطة ووسيلة لنيل

حظوظه، وتسلّى عنه بعطاياه.

أما الدرجة الثالثة، فهي نار تشعلها المحبة الصافية عن الأغراض والنظر إلى النعم، بل التوجه إلى الأفعال والصفات. وهي محبة الذات المنزهة من التعلّق بحسن الصفات.

فلا عيش هنيء دون اللقاء، ولا سلوة، ولا تعزية مسكّنة تطفئ اللهيب. فعندما تدعوه الذات من وراء حجب الأسماء والصفات لا يبقى لغيرها وجود حتى يسلي ويسكن.

القلق

قال الله تعالى: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ [48/20]

القلق تحريك الشوق بإسقاط الصبر.

وهو على ثلاث درجات:

الأولى: قلق يضيّق الخُلق، ويبغّض الخَلق، ويلذذ الموت.

الثانية: قلق يغالب العقل، ويحلي السماع، ويطاول الطاقة

الثالثة: قلق لا يرحم أبداً، ولا يقبل أمداً، ولا يبقي أحداً.

تعليقات

لما كان بعض الشوق مما يمكن الصبر عليه، فإن القلق حالة من الشوق الذي يُسقط الصبر، ليبقي صاحبه شديد الاضطراب في الحركة نحو المحبوب.

والدرجة الأولى قلق المهجور، الذي يرى الدنيا دار الغربة وأهلها غرباء. فهو منقبض النفس ضائق الخلق لبعده، يرى الموت وسيلة للقاء محبوبه فيلتذ بذكره، ويستوحش من الناس إذا رآهم يشغلونه عن المحبوب.

وفي الدرجة الثانية يكاد القلق يغلب العقل ويخالفه في قوة الثبات والاصطبار. ويجعل السماع حلواً في مذاقه لأنه يقلق الباطن ويهيج حركة الشوق ويذكره المعشوق ووصله ويبعثه على شدة الطلب. وإذا اشتد القلق تصاول مع الطاقة وتطاول عليها ليقهرها ويسلب صاحبها الصبر.

والدرجة الثالثة قلق لا يسكن حتى يفضي بصاحبه إلى الفناء المحض، لأنه يطلب الحضور والشهود. وهو ما لا يكون إلا بالفناء المحض.

ولهذا لا ينتهي في زمان ولا يقف عند حد، فإنه حاكم على صاحبه يذهب به في طريق الفناء حتى يقهره المحبوب بجلال جماله، فلا اسم بعدها ولا رسم ﴿وَ يَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَ الْإِكْرامِ﴾ [27/55]

العطش

قال الله تعالى حاكياً خليله عليه السلام:
﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هذا رَبِّي﴾ [76/6]

العطش كناية عن غلبة ولوع بمأمول.

وهو على ثلاث درجات:

الأولى: عطش المريد إلى شاهد يرويه، وإشارة تسقيه أو عطفة تؤويه.

الثانية: عطش السالك إلى أجل يطويه، ويوم يريه ما يعنيه، ومنزل يستريح فيه.

الثالثة: عطش المحب إلى جلوة ليس دونها سحاب علة ولا يغطّيها حجاب تفرقة، ولا يعرّج دونها على انتظار.

تعليقات

العطشان إذا لمح سراباً حسبه ماء. والعطشان إلى لقاء ربه إذا لمح نوراً أو بهاءً وكمالاً في شيء يقول هذا ربي. وبسببه يتغلّب الولع والشغف بالمأمول على صاحبه.

وعطش المريد يكون إلى ما يشهد له بصحة سلوكه واستقامة طريقه، وما يشير إلى صحة غايته ومقصده. أو إلى العناية التي تعطف عليه من مقام الرحيمية فتخصه بالإيواء إلى جنابه الأقدس.

أما السالك فهو المتوسط الذي اقترب من مقصده، وعطشه يكون إلى انقضاء المدة وبلوغ الغاية ومجيء يوم لقائه ووصوله وبلوغه منزل الراحة الأبدية في حضرة جمع الأحدية التي هي متعلق كل فطرة.

والمحب يعطش إلى تجل تام للمحبوب، لا يبقى معه سحاب من تلوين أو غيرية. وهو الفناء التام، حيث لا حجاب لما سوى أكان نفسه أم غيره. وفيه لا يميل أو ينحدر إلى انتظار مقام فوقه لأنه لا جلاوة أعلى منه. وهو غاية التمكين في عين أحدية جمع الذات. "ومن رام وراء ذلك فقد هلك".

الوجد

قال الله تعالى: ﴿وَ رَبَطْنا عَلى قُلُوبِهِمْ إِذْ قامُوا﴾ [14/18]

الوجد لهب يتأجج من شهود عارض مقلق.

وهو على ثلاث درجات:

الأولى: وجدٌ عارض يستفيق له شاهد السمع، أو شاهد البصر أو شاهد الفكر؛ أبقى على صاحبه أثراً أو لم يبقِ.

الثانية: وجدٌ يستفيق له الروح بلمعان نور أزلي، أو سماع نداء أولي، أو جذب حقيقي؛ إن أبقى على صاحبه لباسه، وإلا أبقى عليه نوره.

الثالثة: وجد يخطف العبد من يد الكونين، ويمحّص معناه من أدران الحظوظ، ويسلبه من رق الماء والطين؛ إن سلبه أنساه اسمه، وإن لم يسلبه أعاره رسمه.

تعليقات

الوجد نور ينقذف في القلب من شهودِ عارضٍ دفعي الوجود، يبدو بغتة فيقلق صاحبه.

وفي الدرجة الأولى قد يكون الوارد على قلبه الذي يشهد له بصحة حاله كشفاً سمعياً أو بصرياً. وكلاهما من عالم المثال (كما في المنامات الصادقة). أو أن ينفتح له باب من المعاني الغيبية التي تنزل إلى عقله فيختطفها الفكر. وهذا من عالم القدس.

والدرجة الثانية يستفيق الروح (الذي هو أعلى من العقل) بلمعان نور من أنوار الذات الأزلية من وراء سحاب الأسماء والصفات. أو سماع نداء تجليات الاسم الأول، أو جذب من حضرة الأحدية. وقد يبقى على العبد لباس الأزل، فإن بقيت بقية تلوين، أبقى عليه نوره وأثره.

والدرجة الثالثة وجدٌ يفني من شهود الدنيا والآخرة، ويمحّص من طلب الحظوظ والأعواض، ويخرج من العبودية لما سوى الحق من الخلق الذين هم صورة الماء والطين. فإن أثّر فيه ذلك بشكل كامل أنساه حدوده وقيوده. وإن بقيت عليه بقية تلوين، أعاره مرة أخرى بعض تلك القيود الخلقية.

حتى إذا تواترت عليه التجليات الذاتية يزول التلوين ويزول معه كل اسم ورسم سوى الحق المتعال.

الدهش

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ﴾ [31/12]

الدهش بهتة تأخذ العبد إذا فاجأه ما يغلب عقله أو صبره أو علمه.

وهو على ثلاث درجات:

الأولى: دهشة المريد عند صولة الحال على علمه، والوجد على طاقته، والكشف على همّته.

الثانية: دهشة السالك عند صولة الجمع على رسمه، والسبق على وقته، والمشاهدة على روحه.

الثالثة: دهشة المحب عند صولة الاتصال على لطف العطية، وصولة نور القرب على نور العطف، وصولة شوق العيان على شوق الخبر.

تعليقات

قيل أن الشهود يغلب العقل الباحث عن الدليل، والحب يغلب الصبر الطالب للفراق، والذي يغلب العلم هو التعرف الإلهي بالتجلي.

والأحوال بدايات التجليات الإلهية تصول على علم المريد فتغلبه. فإذا كان العمل ينهاه عن طلب الرؤية ويأمره بالأدب، فإن الحالٍ قد يبعثه على الشطح. وقد يخرج عن الصبر والطاقة فيصرخ ويزعق مبهوتاً. ويأتي الكشف ليأمره بالسكون وترك الطلب لأن القلم جف بما كان وما سيكون، والهمّة تقتضي القصد والجد في الطلب.

كل هذه الأحوال تمثل الزلزال الذي يصيب السالكين بعد بداياتهم نتيجة لوامع الحضرة الإلهية من غيب الذات، وقبل التمكين.

أما الدرجة الثانية من الدهش فإنها تحصل حين تصول حضرة الأحدية على رسوم السالك التي هي حجب الحق، فيشهد السالك دفعة فناء الكل في العين الواحدة.

وإذا شهد سبق الأزل وغلبة القدم، لم يبق حدوث. فيغلب الباقي حوادث التجليات وهي الأوقات. فإن بقاء شيء من حدوث السالك هو الذي يؤطر التجلي الأزلي بأوقات، هي واردات القرب.

ومقام الروح أقرب إلى الوحدة من العقل والنفس. والمشاهدة تدعو إلى الفناء. فلعل الشيخ أراد بصولة المشاهدة على روح السالك غلبة مقام السر على مقام الروح.

ولطف العطية هو نور المحبوب وفيضه الواصل دائماً إلى المحب. يزداد قربه كلما مدده، فإذا وصل إلى آخر الأنوار اتصل بمنبعه، فيبهته.

والمحب إذا كان غائباً ووجد غاية القرب بالاتصال وشهد نور الوجه الكريم بهت ودهش.

وكذلك صولة شوق العيان. فإن من اشتاق للقاء والرؤية بسبب إخبار النبي(ص)، والأئمة(ع) ثم عاين في الشهود ما سمع خبره، ازداد اشتياقه فبهت ودهش أشد أنواع الدهش وأكملها.

الهيمان

قال الله تعالى: ﴿وَخَرَّ مُوسى صَعِقا﴾ [7 143]

الهيمان ذهابٌ عن التماسك تعجباً أو حيرة. وهو أثبت دواماً وأملك بالنعت من الدهش.

وهو على ثلاث درجات:

الأولى: هيمان في شيم أوائل برق اللطف، عند قصد الطريق مع ملاحظة العبد خسة قدره، وسفال منزلته، وتفاهة قيمته.

الثانية: هيمان في تلاطم أمواج التحقيق، عند ظهور براهينه وتواصل عجائبه ولياح أنواره.

الثالثة: هيمان عند الوقوع في عين القدم، ومعاينة سلطان الأزل والغرق في بحر الكشف.

تعليقات

من قصد سلوك الطريق إلى الله، فإن الله بحكم لطفه بعباده يريه من أنوار هدايته ما يلمع كالبرق الخاطف. فإذا كان العبد يرى خسة نفسه وحقارته وتفاهة قيمته، أصابه الهيمان وخرج عن التماسك. فمن أنا وما أنا حتى يتلطف الحق علي.

وإذا صفّى باطنه بالعمل الصالح، لاحت له براهين الحقيقة، ووقع في تلاطم أمواجها. كل موجة تحمل معها تعجباً وحيرة. وبقدر صفاء نفسه يزداد تلاطم الأمواج حتى يقع في الهيمان.

حتى إذا حصل له الفناء، وعاين سلطان الأزل، وغرق في بحر الكشف، اشتدت حيرته بالأسماء، وهي تجليات عين القدم، فوقع في الهيمان. وقيل أن صاحبه قد يغفل عن أحوال الناس، ويغيب عن الإحساس بالحواس.

البرق

قال الله تعالى: ﴿إِذْ رَأَى نَاراً﴾ [10/20]

البرق باكورة تلمع للعبد، فتدعوه إلى الدخول في هذا الطريق.
والفرق بينه وبين الوجد أن الوجد يقع بعد الدخول فيه.
فالوجد زاد والبرق إذن.

وهو على ثلاث درجات:

الأولى: برق يلمع من جانب الوعد في عين الرجاء.
يستكثر فيه العبد القليل من العطاء، ويستقل فيه الكثير من الأعباء، ويستحلي فيه مرارة القضاء.

الثانية: برق يلمع من جانب الوعيد في عين الحذر.
ويستقصر فيه العبد الطويل من أجل، ويزهد في الخلق ويرغب في تطهير السر.

الثالثة: برق يلمع من جانب اللطف في عين الافتقار فينشئ سحاب السرور، ويمطر قطر الطرب، ويجري نهر الافتخار.

تعليقات

السير إما أن يكون إلى الله. ومبدؤه اليقظة، وإما أن يكون في الله ومبدؤه البرق. فالسير إلى الله يكون من الخلق. والسير في الله يكون من الله وإليه، وهو سير في أسمائه وترقّ في درجاته. قال الله تعالى: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ﴾ 40: 15

وإذا كانت الدنيا وما فيها والخلق وما معهم مظاهر آيات الله وتجليات أسمائه، فإن أسماءه هي مظاهر ذاته وتجليات أحديته. والبرق اللامع هو ما يؤذن بالدخول في بحر وحدانيته.

فالوجد نور والبرق كذلك. لكن البرق أنور وأجذب، ولا يقتضي شدة الطلب كالوجد، فلا يلبث لأنه محرق جاذب مغنٍ. والوجد مشوق، مقلق مبق.

والدرجة الأولى من البرق تلمع من جانب وعد الله أولياءه من القرب والكرامة عنده. ولما كان العطاء عندها عطاء الله لا مجرد العطاء استكثر قليله، واستقل الكثير من الأعباء واستحلى مرارات القضاء، من المصائب والابتلاء. فكل ما كان من المحبوب محبوب.

والدرجة الثانية برق يلمع من جانب الوعيد والتهديد بالطرد والهجر في عين الحذر من الله. فيتصور أن قيامته قد قامت وأن العذاب قد اقترب فلا يطول أمله ولا يأنس بأقاربه، ويرغب في تطهير سرّه من دنس الالتفات إلى غيره.

حتى إذا ملكه الافتقار استولى عليه برق له لامع اللطف، فساق إليه سحاب السرور بمشاهدة أنوار الملاطفة، وأمطر عليه قطرات الطرب بما يرى من الألطاف المقربة، وأجرى عليه أنهار الافتخار التي تحفظها سدود آداب العبودية.

وقيل أن أول السلوك في الله هو الافتقار بملاحظة العبد عدمه الذاتي وافتقاره في الوجود وما يتبعه إلى الحق، فينفتح عليه باب الفناء بتجلي الحقيقة وشهود بقاء الحق تعالى علواً كبيراً.

الذوق

قال الله تعالى: ﴿ هذا ذِكْر﴾ [24/21]

الذوق أبقى من الوجد وأجلى من البرق.

وهو على ثلاث درجات:

الأولى: ذوق التصديق طعم العدة. فلا يعتقله ضن، ولا يقطعه أمل، ولا تعوقه أمنية.

الثانية: ذوق الإرادة طعم الأنس. فلا يعلق به شاغل، ولا يفتنه عارض، ولا تكدره تفرقة.

الثالثة: ذوق الانقطاع طعم الاتصال، وذوق الهمّة طعم الجمع، وذوق المسامرة طعم العيان.

تعليقات

لما كان الذوق طريقاً لمعرفة حقيقة الطعم، كان أبلغ من الأكل وأبقى من الوجد.

وإنما كان أبقى من الوجد، لأن الوجد يقتضي وجود بقية من الإنية؛ والذوق من الشهود، والشهود لا يكون إلا مع الفناء. والذوق أمر ثابت لازم للشهود، دائم بدوام شهود الحقيقة.

والتصديق يذيق صاحبه طعم الوعد الإلهي. فلا يحبسه توهم بخل من الواعد، لأن الكريم إذا وعد وفى. وفي بعض النسخ ظن يقدح بالتصديق فيتوهم أن الموعود لن يتحقق.

ولا يقطعه أمل بالدنيا، لأنه بلغ الحياة الآخرة، ولا تعوقه الأماني، لأنه اتصل بالحق.

والمريد يذوق طعم الأنس بالمراد ويذوق حلاوته، فلا يتعلق به أمر يشغله أو عارض يفتنه ويمنعه عن السلوك أو تفرقة تكدره وتزيل جمعيته مع الله.

حتى إذا انقطع إلى الله عما سواه، ذاق طعم الاتصال. وأدركت همّته معنى الجمع بالذوق. والمسامرة تذيق صاحبها لذة شهود الحقيقة بالفناء في عين جمع الأحدية.

قسم الولايات

اللحظ والوقت والصفاء

والسرور والسر والنفَس

والغربة والغرق

والغيبة والتمكن

الولايات مراتب في الفناء، حيث يتولى الحق أمر عبده، فلا تصرّف له أصلاً، إذ لا وجود له، ولا ذات، ولا وصف ولا فعل.

فهي مقامات الفناء بيد المفني، يفعل بعبده ما يشاء، حتى يمحو رسمه واسمه، ويمحق عينه وأثره، فيحييه بحياته، ويبقيه ببقائه.

اللحظ

قال الله تعالى: ﴿انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ [143/7]

اللحظ لمح مستَرَق.

وهو على ثلاث درجات:

الأولى: ملاحظة الفضل السابق.

وهي تقطع السؤال، إلا ما استحقته الربوبية من إظهار التذلل لها. وتنبت السرور إلا ما يشوبه من حذر المكر، وتبعث على الشكر إلا ما قام به الحق عز وجل من حق الصفة.

الثانية: ملاحظة نور الكشف.

وهي تسبل لباس التولّي، وتذيق طعم التجلي، وتعصم من عيب التسلي.

الثالثة: ملاحظة عين الجمع.

وهي توقظ للاستهانة بالمجاهدات، وتخلص من رعونة المعارضات، وتفيد مطالعة البدايات.

تعليقات

إذا لمح العبد الحق باستراق النظر عن أعين الأجانب (الذين هم أهل الحجاب) وهو ينظر بالظاهر إلى الكون، فهذا هو اللحظ. وللّمح حكم آخر هو من لوازم البرق.

وإذا لحظ العبد العناية السابقة والتفضل الزائد على الاستحقاق انقطع سؤاله لربه. فإذا كان أصل الوجود من الرب دون سؤال، فلماذا السؤال والطلب فيما يتعلق بما هو أدنى. وإذا رأى أن ما ناله كان بحكم الفضل السابق، فكيف يطلب. إلا إذا كان السؤال واجباً بحكم قوله: ﴿ادْعُونِي﴾ وقوله تعالى: ﴿وَسْئَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ﴾. فإنه حق الربوبية.

وإذ لحظ ذلك الفضل اعتراه السرور إلا ما يمازجه من حذر المكر الإلهي، فالمؤمن لا يأمن مكر الله.

وكأنه قال: هذا اللحظ يبعث على جميع أنواع الشكر، إلا الشكر المخصوص بالحق، فإنه من صفته التي استأثر الله بها لذاته.

ونور الكشف هو مبدأ التجلي الإلهي في حلل الصفات (وهو التجلي الأسمائي) وهذه الملاحظة تلبس العبد خلعة الولاية، فيتولاه الحق ولا يكله إلى نفسه طرفة عين، فيذيقه حلاوة المشاهدة. فإن التجلي هو الظهور وكشف الحجاب. ولا شك بأن التسلي عن الحبيب في مذهب الحب عيب وعوار، ولحظ نور الكشف يعصمه من هذا الشين.

وملاحظة عين الجمع هو أول شهود الحقيقة الأحدية بالفناء المحض. وهي توقظ العبد، فيستهين بالمجاهدات التي استعظمها قبل الوصول. لأنه أدرك أن الله هو الذي تولاه.

وقد يعترض العبد على الخلق في نفسه، وينكر عليهم ما لا ينبغي. وهي رعونة

تخلّصه منها ملاحظة نور كشف حقيقة "لا مؤثر في الوجود إلا الله". فقد شهد الجمال الساري في كل شيء وأدرك النظام الأجمل، فكيف يعترض!

وما دام العبد في السلوك لا يتفرغ إلى ملاحظة البدايات، الصدق قصده إلى المحبوب. فإذا وصل إلى عين الجمع واستراح عن تعب الطلب، تفرّغ إلى مطالعة البدايات، كما سئل الجنيد عن النهاية، فقال: "الرجوع على البداية".

ولا ننسى أن لكل مقام من البدايات درجة في النهايات، وإن كان بينهما بون بعيد.

الوقت

قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلى قَدَرٍ يا مُوسى﴾ [20: 40]

الوقت اسم لظرف الكون وهو اسم في هذا الباب لثلاثة معان، على ثلاث درجات:

المعنى الأول: حين وُجد صادقٍ، لإيناس ضياء فضلٍ، جذبه صفاء رجاء؛ أو لقصمة جذبها صَدقُ خوفٍ أو لتلهيبَ شوقٍ جذبه اشتعال محبة.

المعنى الثاني: اسم الطريق سالكٍ يسير بين تمكّن وتلوّن لكنه إلى التمكن أقرب يسلك الحال ويتلفت إلى العلم فالعلم يشغله في حين، والحال يحمله في حين فبلاؤه بينهما، يذيقه شهوداً طوراً، ويكسوه غيرة طوراً، ويريه غبرة تفرّق طورا.

المعنى الثالث: قالوا: "الوقت الحق"، أرادوا به استغراق رسم الوقت في وجود الحق.

وهذا المعنى يشق على هذا الاسم عندي، لكنه هو اسمٌ في هذا المعنى الثالث، لحين تتلاشى فيه الرسوم كشفاً، لا وجوداً محضاً.

وهو فوق البرق والوجد، وهو يشارف مقام الجمع لو دام وبقي.

ولا يبلغ وادي الوجود، لكنه يكفي مؤونة المعاملة، ويصفّي عين المسامرة، ويشمّ روائح الوجود.

تعليقات

الكون حدوث الشيء. وهو خروجه من الغيب إلى الشهادة عند التكوين، أي زمان ظهوره. ونُقل هذا اللفظ في اصطلاح القوم إلى معنى زمان ظهور حال من الأحوال أو تجلّ من التجليات.

الوجد الصادق هو المتحقق من رؤية فضل الله ومنّه. ومثل هذا يجذبه رجاء اللقاء.

أو الحاصل من رؤية قهر الله. ومثل هذا يجذبه صدق خوف.

أو الحاصل من لهيب شوق اللقاء. ومثل هذا يجذبه محبة مشتعلة.

والتلوّن هو بقاء الغيرية والتمكن ضده.

وفي المعنى الثاني نجد السالك في وقته متردداً بين البقية والتلوين من جهة والتمكن من جهة أخرى. فتظهر عليه غلبة الحال حيناً والانشغال بمقتضى علمه حيناً آخر. ولكل آثار، فبين غبار التفرقة أو كسوة الغيرية أو ذوق الشهود.

ولهذا كان الوقت ظرف نزول الحقيقة على قلب السالك. وبحسب حال السالك من بقاء الإنية أو التلوين أو الغيرية يكون الوقت وآثاره.

وفي المعنى الثالث إذا تجلّى لم يبق للغير رسماً، والوقت زمان يصدق عليه الغير، فيفنى رسمه في وجود الحق. فالواردات والتجليات الإلهية وإن كانت جهة الحق عليها غالبة، لكن لما كان الخلق محلها، كان لها جهة الغيرية. حتى إذا انتفت التعينات وفنيت في وجود الحق استغرق الزمان المطلق الوقت المعين(الذي هو وقت السالك) كاستهلاك القطرة في البحر، واستهلاك تعين الزمان في الدهر، والدهر في السر، واستهلاك تعين السرمد الذي هو امتداد الألوهية في بقاء الذات الأحدية.

ولما كان الوقت ظرف كون ما من الأكوان(بحكم التجلي)، فلا مناسبة بين هذا المعنى وبين استغراق رسمه في وجود الحق، فلا يحسن إطلاقه عليه، ويشق على النفس استعماله بهذا المعنى.

وحتى يتلاشى رسم العبد في وجود الحق كشفاً (لا وجوداً محضاً) يكون الوقت اسماً لحين معيّن من أحيان أحوال السالك. والكشف تجل غير دائم فيه تلوين. أما الوجود فيقصد به وجود الحق ذاته بذاته، أي شهوده لأحديته من غير اعتبار صفة أو اسم أو رسم: كان الله ولم يكن معه شيء.

لما كان الوقت بالمعنى الثالث مشرفاً على مقام الجمع، فيكون فوق البرق والوجد، لأن نوره أدوم. فإن التجليات الإلهية التي تكون بحسب قلب السالك إذا دامت وبقيت أشرفت على مقام الواحدية. فهي بمنزلة أنوار التعرفات الإلهية، تتدافع السالك حتى تبلغ به تلك الحضرة. وهو من هذه الجهة كافٍ من كلفة المجاهدة ومؤنتها، ومصفٍ لعين المسامرة من كدر التفرقة. ويشم صاحبه روائح حضرة الوجود الذي هو عين الجمع.

الصفاء

قال الله تعالى: ﴿وَ إِنَّهُمْ عِنْدَنا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيارِ﴾ [38/47]

الصفاء اسم للبراءة من الكدر.
وهو في هذا الباب سقوط التلوّن.

وهو على ثلاث درجات:

الأولى: صفاء علم يهذب لسلوك الطريق، ويبصر غاية الجد ويصحح همة القاصد.

الثانية: صفاء حال يُشاهَد به شواهد التحقيق، ويذاق به حلاوة المناجاة، وينسى به الكون.

الثالثة: صفاء اتصال يدرج حظ العبودية في حق الربوبية، ويغرق نهايات الخبر في بدايات العيان، ويطوي خسة التكاليف في عز الأزل.

تعليقات

العلم عند هذه الطائفة هو ظاهر الشريعة الذي يدعو إلى التعبّد. ومن أحسن متابعة الشرع الأنور رزقه الله نور البصيرة وجعله من أهل الصفاء. وغاية الجد هي نهاية السلوك وانقضاؤه إلى حد الجمع بالفناء في الحق. وما لم يقف العبد بالعلم والبصيرة على المقصد دون الالتفات إلى غيره من المقامات لم تصح همته.

والدرجة الثانية من الصفاء، تتعلق بالحال الذي هو عيان ما علم في الدرجة الأولى بالشريعة. فهي أنوار صفات الحضرة الأسمائية.

وهذه الواردات هي شواهد الوصول، فإذا تنوّر القلب بها أدرك هذه الشواهد الهادية إلى حضرة الذات. فهذا هو صفاء الحال. فتحلو المسامرة لمطالعة جمال الوجه الباقي، وينسى ما سواه للَمعان نور العشق.

والاتصال فناء ما للعبد من أَفعاله وصفاته وذاته في ما للحق.

وهو معنى إدراج حظ العبودية في حق الربوبية، ولهذا قال الإمام الصادق عليه السلام: "العبودية جوهرة كنهها الربوبية". فإن وصول السالك إلى مقام العبودية المطلقة يجعله محل تجليات الربوبية لزوال القيود والحدود. فالصفاء الاتصالي يوجد شهود الحق بفناء الحدود في وجود الحق. فيفني اسمه الظاهر ظاهر العبد، واسمه الباطن باطنه.

وكل ما عرفه من التجليات الإلهية بالأخبار يراه بالعيان. فيزول حجاب العلم بنور المعاينة.

وإذ كان يرى الأوامر كلفة، فإنه الآن يلتذ بها لأنها تجليات إرادة المحبوب. فتزول هذه الخسة من نفسه بهذا الصفاء. وينمحي ذلها في عز بقاء الحق عند تجليه في قلب العبد ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

السرور

قال الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَ بِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [10: 58]

السرور اسم لاستبشار جامع.

وهو في هذا الباب على ثلاث درجات:

الأولى: سرور ذوق، ذهب بثلاثة أحزان: حزن أورثه خوف الانقطاع، وحزن هاجته ظلمة الجهل، وحزن أغشته وحشة التفرق.

الثانية: سرور شهود، كشف حجاب العلم، وفك رق التكلّف، ونفي صغار الاختيار.

الثالثة: سرور سماع الإجابة، وهو سرور يمحو آثار الوحشة، ويقرع باب المشاهدة، ويضحك الروح.

تعليقات

السرور ابتهاج يشمل ظاهر العبد وباطنه، وهو أصفى من الفرح، لأن الأفراح ربما شابها الأحزان. واستعمال الفرح في لذات الدنيا أكثر، والسرور في لذّات الآخرة: ﴿فَوَقاهُمُ اللّهُ شَرَّ ذلكَ الْيَوْمِ وَ لَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَ سُرُوراً﴾ [11/76]

والدرجة الأولى منه تنشأ من التصديق المذكور في الدرجة الأولى في باب الذوق، فيذهب بحزن خوف الانقطاع في الطريق وعدم الوصول، وحزن حيرة الجهل، وحزن نشأ من وحشة الكثرات والنظر إلى ما سواه.

والدرجة الثانية، لما كان العلم في اصطلاح القوم حجاباً لأنه لا يكون إلا غيبة، فإن الشهود كشف هذا الحجاب، وسروره يفك قيد المشقة في العبادة والطاعة، وينفي مذلة الإختيار الصادر من العبد مقابل اختيار الحق تعالى. فما دام للعبد مثل هذا الاختيار فهو حبيس نفسه وأسير هواه. والشهود يحكم بفناء رسمه واسمه وإرادته ومشيئته، فيسر عندما يشاهد الحق المتعال متصرفاً في مملكة وجوده.

والسرور الثالث ينشأ من سماع إجابة الحق حين يناجيه، "إلهي واجعلني ممن ناديته فأجابك". فإذا زالت الحدود وارتفعت الحجب ذهبت الوحشة وانعدمت الغربة: فهو أنيس المستوحشين. وهناك يقرع باب شهود أعلى. فإن كان الشهود السابق شهود توحيد الأفعال، فإن هذا الشهود يتعلق بحضرة الأسماء وتوحيد الصفات. فتضحك له الروح، لأنها محل تجليات الذات، وهذا وقتها.

السر

قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [هود: 31]

السر هو المعنى الباطن من إدراك المشاعر.
وأصحاب السر هم الأخفياء.

وهم ثلاث طبقات على ثلاث درجات:

الأولى: طائفة علت هممهم، وصفت قصودهم، وصح سلوكهم، ولم يوقف لهم على رسم، ولم ينسبوا إلى اسم، ولم تشر إليهم الأصابع.. أولئك ذخائر الله عز وجل حيث كانوا.

الثانية: طائفة أشاروا عن منزل وهم في غيره، وورّوا بأمر وهم بغيره، ونادوا على شأن وهم على غيره، بين غيرة عليهم تسترهم، وأدب فيهم يصونهم، ونزاهة تهذبهم.

الثالثة: طائفة أسرّهم الحق عن أنفسهم، فألاح لهم لائحاً أذهلهم عن إدراك ما هم فيه، وهيمهم عن شهود ما هم له، وضنّ بحالهم على علمهم معرفة ما هم فيه، فاستسروا عن أنفسهم؛ مع شواهد تشهد لهم بصحة مقامهم، من قصد صادق يهيّجه غيب، وحب صادق يخفى عليهم علمه، ووجد غريب لا ينكشف لهم موقده. هذا من أرقّ مقامات أهل الولاية.

تعليقات

لكل إنسان سر، لكن أسرار السالكين لها قدسية خاصة. والله تعالى أعلم بما في أنفسهم من المعاني المستورة.

فسرّ الطبقة الأولى من الأخفياء الذين ورد فيهم حديث نبوي نُقل عن العامة: "إن الله يحب الأبرار الأتقياء الأخفياء، الذين إذا غابوا لم يفتقدوا، وإن حضروا لم يُدعوا ولم يُعرفوا..." هم الذين تنزهوا عمّا انشغل به أهل الدنيا وارتفعت هممهم لطلب معالي الأمور. ولهذا لا نجد لهم بين اعتبارات أهل الدنيا اسماً ولا رسماً. فلا شهرة لهم من الوجاهات والعناوين كالرئيس والزعيم والمسؤول والاستاذ. وقد يبتلي الله بعضاً منهم بالمسؤوليات فتصيبه الدنيا باعتباراتها. وقيل أن الله تعالى يدفع بهم البلاء عن عباده، كما يُدفع بالذخيرة بلاء الفاقة.

والطبقة الثانية من الأخفياء وأصحاب السر طائفة استعملوا التقية في علاقتهم بالله ومقاماتهم عنده. فلا يكشفون سرّهم مع الله لأحد عملاً بوصية أمير المؤمنين(ع): "حق كل سر أن يُصان، وأحق الأسرار بالصون سرّك مع مولاك، واعلم أن من فضح فُضح ولدمه قد استباح".

فألقى الله تعالى عليهم لباس غيرته، فضنّ بهم لنفسه، وأدّبهم صيانةً وهذّبهم نزاهةً.

هؤلاء الأخفياء يمتنعون عن الخوض في كل ما يرتبط بالسير والسلوك والحقائق الكبرى.

أما الطائفة الثالثة فإن سرّهم مستور عنهم، لأن الله تعالى شغلهم عنها وهيّمهم، وأخفى أحوالهم عن علومهم، دون أن يضلّوا الطريق. فقصودهم متصلة بعالم الغيب، وحبهم لا يعتريه جهل ونيران وجدهم لا يعلمون موقدها.

وإذا كان أهل الولاية درجات، فإن منهم من هم أرقّ مقاماً، وهم الأخفياء من الطبقة الثالثة.

فالدرجة الأولى خفاء أهل السر بسبب جهل الناس، والدرجة الثانية اختفاؤهم عنهم بإرادتهم، والدرجة الثالثة اختفاؤهم عن أنفسهم من الله..

النَفَس

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ﴾ [7/143]

النفَس تروّح المتنفّس.

وهو على ثلاث درجات:

النَفَس الأول: نفس في حين استتار مليء بالكظم، معلّق بالعلم، إن تنفّس نفس المتأسّف، وإن نطق نطق بالحرب. وهو يتولّد من وحشة الاستتار. وهو الظلمة التي قالوا عنها أنها مقام.

النَفَس الثاني: نفسٌ في حين التجلي، وهو نَفس ينطلق من مقام السرور إلى رَوح المعاينة، مليء من نور الوجود، متوجه إلى منقطع الإشارة.

النفس الثالث: نفس مطهر بماء القدس، قائم بإشارات الأزل، وهو النَفس الذي يسمّى "صرف النور".

فالنَفس الأول للغيور سراج، والنفس الثاني للقاصد معراج، والنفس الثالث للمحقق تاج.

تعليقات

إذا استفاق المغمي عليه تروّح، وإذا تنفّس المكروب استراح. ودرجات النفَس تشبه درجات الوقت لأن الوقت حينٌ مخصوص بكون حدث فيه، وكذلك النَفَس حين مخصوص بما حدث فيه، كالاستتار والتجلي. لكن الفرق كامن في التروّح. فباعتباره زاد معنى النَفَس على معنى الوقت.

والاستتار هو احتجاب المحبوب واختفاؤه بعد التجلي، أو هو مفارقة حال صادق كان له. فهذا ما يوجب تنفّس الحزين المكروب. وهو يعلم أن الغيظ الحادث من الاستتار لا حيلة في دفعه. فالعلم يأسره ويحكم عليه بتجرّع مرارة الصبر، لذلك كان كرب العلم أمرّ من كرب المحبة الممزوج بحلاوة وجدان فعل المحبوب(باستتاره عنه). وكل ما يفعله المحبوب محبوب.

ولا يصح أن يكون مقاماً، لأنه زوال حال. والاستتار ووحشته تأخّر. أما النَفَس الثاني فهو خارج من مقام السرور والذوق إلى رَوح المعاينة في حضرة الجمع. ومنشؤه التجلي. والوجود هو حضرة الجمع. ومنقطع الإشارة هو مقام الذات التي لا إشارة إليها. فمن تجلّت له الذات من غير إشارة جذبته من مقام السرور إلى المعانية، فتنفّس.

وقال الله تعالى: ﴿وَسَقاهُمْ رَبُّهُمْ شَراباً طَهُوراً﴾، وفيه قال الإمام الصادق عليه السلام: أي يطهّرهم من كل ما سواه. فماء القدس هو المطهّر من كل لوازم السوى والكون والحدوث. والمراد من هذا النفس تجلي الأحدية.

فمن تروّح بهذا النفَس، انتقل من لوث الغيرية (مهما كانت) إلى طهارة التجلي الأزلي وأقام إشاراته على كل نفس.

ولهذا سُمّي صرف النور أي مكمن نور السموات والأرض.

فمن غار على محبوبه حين استتاره، أضيء له سراج يمشي به في ظلمات الاحتجاب والفراق. ومن تنفس من وراء حجاب العلم، عُرج به إلى حضرة المقصود. ومن طهُر من دنس الكون وكدر الرسم، فله فخر الوجود وتاج الوجوب، وإن لم يفتخر على أحد.

الغربة

قال الله تعالى: ﴿فَلَولا كانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسادِ فِي الْأَرْضِ إِلاَّ قَليلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنا مِنْهُم﴾ [11: 116]

الاغتراب اسم يشار به إلى الانفراد عن الأكفاء

وهو على ثلاث درجات:

الأولى: الغربة عن الأوطان. وهذا الغريب موته شهادة، ويُقاس له في قبره من متوفاه إلى وطنه نور، ويُجمع يوم القيامة إلى عيسى بن مريم عليه السلام.

الثانية: غربة الحال. وهذا من الغرباء الذين طوبى لهم. وهو رجل صالح في زمان فاسد بين قوم فاسدين، أو عالم بين جهّال أو صدّيق بين قوم منافقين.

الثالثة: غربة الهمّة. وهي غربة طلب الحق. وهي غربة العارف لأن العارف في شاهده غريب، ومصحوبه في شاهده غريب، وموجده فيما يحمله علم، أو يظهره وجد أو يقوم به رسم أو تطيقه إشارة، أو يشمله اسمغريب. فغربة العارف غربة الغربة، لأنه غريب في الدنيا والآخرة.

تعليقات

الانفراد بالصفة الكمالية عن الأقران هو الاغتراب.

ومن هاجر من وطنه ومات، مات غريباً، فهجرته وأجره على الله. ومن كان أجره على الله كان شهيداً.

وفي الحديث عن رسول الله(ص): طوبى للغرباء.

ومن الغرباء من يكون غريباً في قومه، حينما يسلك طريق الحق دونهم، فينفرد عنهم بحاله.

أما العارف فغربته أشد. وهو الذي ارتفع عنه حجاب العلم بالتجلي الشهودي؛ فغربته هي اختصاصه بأمر لا يدركه الناس، وتعلق همته بما لا يطيقونه.

ولئن كان لكل إنسان شاهد يُعرف به، فإن العارف في شاهده غريب، لا يمكن للناس أن يتعرفوا إليه من خلاله.

ومصحوبه هو العلم الحقيقي الذي يصحبه بعد الشهود. فهذا العلم عن إدراك عقول الناس غريب، لأنه بالحق.

وموجوده، (وهو ما يجده من مشهوده)، غريب عن العلوم المنقولة والمعقولة. ولأن الوجود شهود صاف عن التلوين والبقية والقلق، كان غريباً عن الوجد الذي يلازمه قلق وتلوين. فإن الوجد عند الوجود ينتفي، ولهبه ينطفي. فمشرب أهل الوجود العين الكافورية الصافية، ومشرب أهل الوجد العين الزنجبيلية أو ما مزج منهما.

ولأن الرسم منطمس في حضرة الوجود، وكل ما يقوم به الرسم حادث مثله، وموجود أهل الوجود قديم، فالقديم عند الحادث غريب.

وقيل أن ما يقوّم الرسم هنا هو الاسم القيوم. والقيومية من الحضرة الواحدية. وموجود العارف من الحضرة الأحدية. فلذلك كان غريباً عنه. ولما كان الوجود منقطع الإشارةكما تقدمكان موجود العارف عندها، كما قال أمير المؤمنين(ع) علي عليه السلام في بيان الحقيقة: "كشف سبحات الجلال من غير إشارة."

ولأن موجود العارف من عين الذات الأحدية، ولا اسم في تلك الحضرة ولا حد ولا رسم، فهو في كل موقف يشمله اسم من أسماء الله غريب.

ويجوز أن يكون المعنى أنه غريب في كل ما له مقام وتعيّن. فإن الإطلاق لا يحيط به تعيّن.

فغربة العارف غربة الغربة لأنه سلك طريق الحق بالاغتراب عن العادات والرسوم الخَلقية وقطع منازل النفس إلى أودية القدس، فصار غريباً في الدنيا لانفراده بأنوار عالم القدس عن ظلمات عالم الرجس. ثم اغترب عن عالم القدس وفارق أهله، وجذبه الحق من كثرات الأسماء والصفات حتى محا رسمه وأفناه عن وجوده في عين أحدية الذات. فهو غريب في الدنيا غريب في الآخرة، وهو تمام الفقر. قيل: "إذا تمّ الفقر فهو الله".

الغرق

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ [37: 103]

الغرق اسم يُشار به في هذا الباب إلى من توسط المقام، وجاوز حد التفرق.

وهو على ثلاث درجات:

الأولى: استغراق العلم في عين الحال. وهذا رجل قد ظفر بالاستقامة وتحقق في الإشارة، فاستحق صحة النسبة.

الثانية: استغراق الإشارة في الكشف. وهذا رجل ينطق عن موجوده ويسير مع مشهوده، ولا يحس برعونة رسمه.

الثالثة: استغراق الشواهد في الجمع. وهذا رجل شملته أنوار الأولية، ففتح عينيه في مطالعة أنوار الأزلية، فتخلص من الهمم الدنية.

تعليقات

اسلام الوجه لله ببذل الروح وذبح الولد، الذي هو أعز من حشاشة النفس، إنما يكون لقوة الحب والاستغراق في مقام القرب. فالقرب هو عين الولاية، والغرق هو توسط مقام الولاية.

ولما كان الغرق أصل قسم الولايات، قال في تعريفه "في هذا الباب". ومن تجاوز حد التفرق غاب عن رؤية الغير؛ فالغريق مغموس بحاله، مشغول عن غيره.

وفي الدرجة الأولى يستهلك العلم في بحر الحال. فيستولي عليه، ليعمل بالمواجيد الحالية تاركاً أحكام العلم على ظاهره.

وصاحب هذا الحال رجل على محجة الطريق، قد أمن من الضلالة لاتصافه بصفات أهل الولاية، فيشير بحقائق الأسماء إلى الحق. وحق النسبة هي العبودية. فإن كان الغالب عليه تجليات الجمال فهو عبد الجميل أو عبد اللطيف.. وإن كان الغالب عليه تجليات الجلال، فهو عبد الجليل أو عبد الجبار...

والدرجة الثانية تكون بالترقي عن الحضرة الأسمائية إلى الحضرة الذاتية، وعندها تغرق الإشارات في بحر كشف الذات. ولما كان كذلك، فإنه ينطق عن موجوده، لا عن منقوله أو معقوله. ويكون سيره بالله مع الله. والرعونة هنا هي في وجود البقية مع حسبان انتفائها وفنائها.

والدرجة الثالثة استغراق شواهد تجليات الأسماء في حضرة جمع الأسماء ونفي الصفات، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: "وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه."

وهذا رجل أحاطت به أنوار أولية الحق للكل، ففتح عينيه في مطالعة أنوار سر القدر والحضرة الأسمائية وحقيقة الأعيان الثابتة وأسرار الوجود. وهناك يتصف بصفات الحق تعالى، فيخلص من دنايا صفاته الفانية وهممه القاصرة.

الغيبة

قال الله تعالى: ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَ قالَ يا أَسَفى عَلى يُوسُفَ﴾ (84/12)

الغيبة التي يشار بها في هذا الباب على ثلاث درجات:

الأولى: غيبة المريد في محل خلوص القصد عن
أيدي العوائق
ودركات العوائق
لالتماس الحقائق

الثانية: غيبة السالك عن رسوم العلم
وعلل السعي
ورُخص الفتور

الثالثة: غيبة العارف عن عيون الأحوال والشواهد والدرجات في حصن الجمع.

التعليقات

غيبة المريد في محل خلوص القصد إلى الحق عن كل ما يتعلق به قلبهحتى لا تعوقه العوائق فتنزله إلى الأسفلطلباً للحقائق المذكورة في القسم التالي.

أما غيبة السالك فتكون باستيلاء الحال عليه، فيغيب عن رسوم العلم وقيوده. فإن مواجيد الحال تحكم بالغيبة عن تلك الرسوم وعن علل السعي وشوائبه. وهي أن يرى سعيه من نفسه أو أنه مؤثر في تحصيل المقصود.

ولما كان نظره قبل ذلك إلى العلم وأحكامه، وفيها جواز الأخذ بالرُخص، كما في الحديث: "إن الله يحب أن يؤخذ برخصه كما يحب أن يؤخذ بعزائمه". والرخصة عبارة عن جواز ترك العمل المأمور به أو ترك جزء منه بحسب الحكم. فالواقع تحت تأثير العلم يبحث عن الرخص والأعذار لترك العمل. فإذا ارتفع حجاب العلم، ترك رُخص الفتور لاستيلاء طلب المحبوب ومحبته على فعله وسعيه.

وغيبة العارف الواصل إلى حصن جمع الأحدية، فتكون عما سبق من الأحوال التي هي واردات الصفات وتجلياتها. ولأن الأحوال تقتضي واجداً وموجوداً ووجدانا، فالعارف ممحوّ الرسوم، مطموس العين والأثر في حضرة الجمع.

ويغيب عن عيون الشواهد، التي هي الأسماء والصفات، والترقي والسير فيها، لأنه صار في مقام نفي الصفات بكمال الإخلاص في فناء الجمع.

التمكن

قال الله تعالى: ﴿وَ لا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُون﴾ [60/30]

التمكن فوق الطمأنينة، وهو إشارة إلى غاية الاستقرار .

وهو على ثلاث درجات:

الأولى: تمكّن المريد. وهو أن تجتمع له صحة قصد تسيّره ولمعان شهود يحمله، وسعة طريق تروّحه.

الثانية: تمكن السالك. وهو أن تجتمع له صحة انقطاع وبرق كشف، وصفاء حال.

الثالثة: تمكن العارف. وهو أن يصل إلى الحضرة فوق حجب الطلب، لابساً نور الوجود.

تعليقات

من قبل الاستخفاف اضطرب وتلوّن. ومن وصل إلى نهاية الاستقامة وكمال الاستقرار في مقام الولاية، تمكّن وانتفى تلوّنه.

ودرجة المريد منه أن يجتمع له ثلاثة أشياء:

1. صحة التوجه إلى الحق في قصده وسيره
2. ولمعان شهود من جانب المراد يحرضه على السير
3. ووضوح الطريق وسعته بقوة اليقين، يريحه من التردد.

ودرجة السالك أن يجتمع له ثلاثة أشياء:

1. صحة الانقطاع عما سوى الحق
2. برق التجليات الأسمائية الداعية إلى الفناء
3. صفاء الحال من معارضة العلوم.

أما درجة العارف فهي الاستقرار في حضرة الجمع، فيخترق حجاب الطالب، لأن الطلب لا يكون إلا مع الغيبة، فإذا وصل إلى المطلوب، استراح من الطلب، ولبس نور الوجود، بالبقاء بعد الفناء. ومن صار كذلك كان وجوده بالحق في الحق في موطن الغيب المطلق، فلا يعرفه إلا من اختصه الله.

قسم الحقائق

المكاشفة والمشاهدة

والمعاينة والحياة والقبض

والبسط والسكر والصحو

والاتصال والانفصال

وإذا رُد إلى البقاء وخُلع عليه خلعة الوجود للاصطفاء، انشرح صدره بالله، فشاهد رسوم الخلقية في عين الحقية، فأوتي حقائق المعارف والحكم التي هي من أسرار الاسم الهادي لتكميل الناس ..

المكاشفة

قال الله تعالى: ﴿فَأَوْحى إِلى عَبْدِهِ ما أَوْحى﴾ [10/53]

المكاشفة مهاداة السر بين متباطئين. وهي في هذا الباب: بلوغ ما وراء الحجاب وجوداً.

وهي على ثلاث درجات:

الأولى: مكاشفة تدل على التحقيق الصحيح. وربما شابها رؤيته مقامه، من غير معارضة تفرق. ولهذا تكون حيناً دون حين. على أنه بلغ مبلغاً لا يلفته قاطع، ولا يلويه سبب، ولا يقتطعه حظ.

الثانية: مكاشفة مستديمة لا تكون حينا دون حين.

الثالثة: مكاشفة عيناً لا مكاشفة علم ولا مكاشفة حال. وهي مكاشفة لا تذر سِمة تشير إلى التذاذ، أو تلجئ إلى توقّف أو تُنزل على ترسّم. وغاية هذه المكاشفة المشاهدة.

تعليقات

معنى الوحي الإشارة الخفية. ومعنى المكاشفة ملاقاة وتبادل الأسرار في قنوات الباطن، ولا يكون إلا بإشارة خفية. فمن كاشف الآخر بسرّه فقد أوحى إليه. وإذا لاقى باطن الأول الثاني سرى السرّ بينهما متكاشفاً.

والحجاب هو حجاب العلم. والوجود كما مر هو الشهود. ومن اطلع على حقائق الأشياء في مرتبة الأعيان الثابتة، فقد حصل له الشهود. والمكاشفة العلمية تحصل من وراء حجاب، ومنها الكشف الصوري الذي هو من عالم المثال، وليس من الطريق في شيء. وقيل أنه في الأغلب يشكل مانعاً للسلوك، ولهذا يشترك فيه أهل الملل كلها.

والتحقيق الصحيح هو مطالعة تجليات الأسماء الإلهية. وكونها غير مستديمة لا يعود إلى الانشغال بالكثرات، لأن صاحبها مجموع الهم على الله، لا يرى الغير حتى يتفرّق. بل لأنه ربما حجبه شوب رؤية مقامه، فيقع في التلوين [برؤية كونه مكاشفاً].

وقد يبلغ في شهود المقصود وصدق القصد بحيث لا يلفته قاطع ولا يحرفه سبب ولا يقتطعه النظر إلى حظوظ نفسه.

والدرجة الثانية هي مكاشفة بعين الحقيقة، لا بعلم يحجب المعلوم، ومكاشفة بالمواجيد الحالية والواردات القلبية، لأن فيها رائحة الغير. ولهذا، فهي تمحو الرسوم والآثار. فلا بقية للسالك تحس بلذة من النفس. فإن اللذات، إما أن تكون بسبب ملاءمة المطلوب مع الطباع والمزاج وهي اللذات النفسية، وإما أن تكون غيرها. والذي ينتفي هنا هو الأول.

والبقية تلوين توجب الوقوف معها، فيضطر المكاشف إلى التوقف. أما المكاشف الذي أفنى البقية فلا توقف له.

المشاهدة

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ في ذلِكَ لَذِكْرى لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيد﴾ [37/50]

المشاهدة سقوط الحجاب بتّاً. وهي فوق المكاشفة. لأن المكاشفة ولاية النعت، وفيه شيء من بقاء الرسم. والمشاهدة ولاية العين والذات.

وهي على ثلاث درجات:

الأولى: مشاهدة معرفة تجري فوق حدود العلم في لوائح نور الوجود منيخة بفناء الجمع.

الثانية: مشاهدة معاينة تقطع حبال الشواهد، وتُلبس نعوت القدس، وتخرس ألسنة الإشارات.

الثالثة: مشاهدة جمع تجذب إلى عين الجمع، مالكة لصحة الورود راكبة بحر الوجود.

تعليقات

الشهيد يأتي بمعنى المشاهد. كالجريح بمعنى المجروح.

وعند العارف، يكون مقام شهود الذات في حجاب الأسماء علامة على بقاء ولاية النعوت وتصرفها، وفيه شيء من بقاء الرسوم. فإذا سقط وزال، كانت الولاية للعين (الحقيقة) والذات، وهذا هو المقصود من المشاهدة.

والمكاشفة من مقدمات المشاهدة. فقد تكون مع التلوين، لأن الفناء بالصفات في النعوت والصفات لا يستلزم فناء العبد بذاته في الذات الأحدية، وبقاء الصفة مع فناء الموصوف محال.

وقد تطلق المشاهدة على شهود الصفات مجازاً. وقد تقدم مثل هذا من الشيخ في عدة مواضع، لكنها بمعنى ولاية الذات وشهودها حقيقة.

وفي الدرجة الأولى تكون مشاهدة المعرفة مع حضور المعروف عن عين غير لابث. والمعرفة لا تكون إلا من بوارق نور الوجود (لا صفاته) التي تسفر عن وجه المعروف. فيشاهد العارف وقت لمعانها، وتبقى عليه المعرفة وقت خفوتها.

ولهذا تجري هذه المشاهدة منيخة بفناء الجمع أي بساحته. فإنها بتواتر اللوائح تصير مستقرة في عين الجمع. لأن اللوائح مبادئ التجلي، ودوام التجلي يوجب استقرار المشاهدة في عين الجمع، وكأنه هنا مثّل المشاهد بالمسافر، والمشاهدة بناقته التي يسافر عليها، وشبّه حضرة الجمع بالدار وقد أناخ المشاهد ناقته بفنائها.

والدرجة الثانية مشاهدة المعاينة وهي فوق مشاهدة المعرفة، لأنها ثابتة مستقرة. والشواهد هي البوارق واللوائح المذكورة. سمّيت كذلك لأنها تشهد للسالك بصحة الطريق، لأنه تلوح من حضرة الوجود.

وشُبّهت بالحبال لأنها تجذب الطالب إلى المطلوب. والحبال يحتاج إليها مع البعد والانفصال، أما إذا بلغ غاية القرب والاتصال، فلا حاجة للحبال والجواذب.

ونعوت القدس المنزهة في أية كثرة. والإلباس إشارة إلى وجوده العيني بالحق

حال البقاء بعد الفناء، واللباس هو خلعة الحق لاختصاصه لنفسه.

والإشارة تكون في حضرة الأسماء والصفات، لاقتضائها التعدد والكثرة. إذ لا بد لها من مشير ومشار إليه وإشارة. وحضرة الجمع أحدية فردانيته، لا تثليث فيها ولا ثنوية، فلا إشارة.

أما مشاهدة الجمع، فتكون بعد فناء فيه، وهو شهود الحق بالحق، بعد أن أحرق نور الجمع وجود العبد. فيرجع النور الذاتي المتجلي في الصور الخلقية إلى أصله الحقاني، وعين العبد إلى عدميته الأصلية. فيكون الحق مشاهداً لذاته بذاته في طور من أطوار ظهوره.

والمالكية هنا بمعنى الشدة والتمكن، وهو معنى شهادة الحق لها بصحة الورود. فالوجود الحقاني له شاهد بأنه قد فنى بالورود، فصح وروده بالفناء.

وقوله "راكبة بحر الوجود" أي كائنة في بحر الوجودلا في أنوارهيجري بها كيفما شاء، فيكون العبد صورة للوجود في عين الجمع، نعتاً من نعوته. والنعت قائم بالمنعوت الذي هو الذات، باعتباره اسماً من أسماء الحق.

المعاينة

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ [45/25]

المعاينات ثلاثة:

إحداها: معاينة الأبصار.

الثانية: معاينة عين القلب. وهي معرفة الشيء على نعته علماً يقطع الريبة، ولا تشوبه حيرة. وهذه معاينة بشواهد العلم.

الثالثة: معاينة عين الروح. وهي التي تعاين الحق عياناً محضاً. والأرواح إنما طُهِّرت وأكرمت بالبقاء لتناغي سناء الحضرة وتشاهد بها، العزة، وتجذب القلوب إلى فِناء الحضرة.

تعليقات

الظل هو الوجود الإضافي المنبسط. فظل الشيء تشكّله بسبب نور الوجود في حجب النور. فلولا النور لما وُجد، وكذلك هو انعدام النور! وقوله "ألم تر" إشارة إلى المقصود من المعاينة.

ومعاينة عين القلب هي إدراك البصيرة المنوّرة بنور الهداية الحقانية، وهي نور العقل الصافي من شوب الوهم. وهي معرفة الشيء على نعته الذي هو به موصوف في نفس الأمر. وهي معرفة علمية يقينية لا عن كشف، بل في طور العلم، لكنه غير مشوب بالحيرة والشك. وهي التي تحصل بالدلائل العقلية الصحيحة، أو النقلية المستندة بالإسناد الصحيح والنقل الصريح عن حضرة النبوة والولاية الحقة.

وعين الروح هي نور الحق. فالمعاين هنا يكون بنور الحق للحق، لا تشوبه شبهة، ولا يحجبه حجاب.

والأرواح إنما طهرت عن دنس التعلق والحجاب والنظر إلى الغير. ولهذا كانت دالة دوماً على الوحدة، لأنها من نور الحضرة، تبقى ببقائها. وهذه المناغات إنما تكون للميل الذاتي والحب الأصلي بين الشيء وأصله.

ولما كان الروح من سناء الحضرة لزم انجذابه بالعشق إلى ذلك السناء، وجذب نور الحق إياه بحكم ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾.

وتعاين بهجة الأحدية وعظمتها، لأن العزة هي الوحدانية التي تمتنع عن إدراك الغير، والعزيز هو المتمنّع عن إدراك الغير. والعزيز هو المتمنّع عن أن يصل إليه غيره ويدركه. وبهاؤها نورها وسبحاتها التي تحرق عند كشف الحجاب كل ما وسم بالغيرية والسوى.

الحياة

قال الله تعالى: ﴿أَ وَ مَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناه﴾ [6/122]

اسم الحياة في هذا الباب يشار به إلى ثلاثة أشياء:

الحياة الأولى: حياة العلم من موت الجهل، لها ثلاثة أنفاس:

نَفَس الخوف، ونفس الرجاء، ونفس المحبة.

الحياة الثانية: حياة الجمع من موت التفرقة. لها ثلاثة أنفاس: نفس الاضطرار، ونفس الافتقار، ونفس الافتخار.

الحياة الثالثة: حياة الوجود. وهي حياة بالحق، لها ثلاثة أنفاس:

نفَس الهيبة وهو يميت الاعتدال

نفَس الوجود وهو يمنع الانفصال

نفَس الانفراد وهو يورث الاتصال

وليس وراء ذلك ملحظ للنظارة، ولا طاقة للإشارة.

تعليقات

بالعلم يحيا القلب ويتحرك في طلب الحق، والحركة من خواص الحياة، وبالجهل يموت ويسكن، كالميّت.

ونفَس الخوف هو العمل المتعلق بالوعيد والتهديد.

ونفَس الرجاء هو العلم المتعلق بالوعد والترغيب.

ونفَس المحبة هو العلم بالآيات والأخبار الواردة في المحبة والشوق.

والعمل بهذه العلوم يورث علوماً أخر من أبوابها، موجبة للتروّح إلى الرب الرحيم. وهو نَفَس العلم. والنَفَس من خاصية الحياة.

وحياة الجمع هي الحياة القلبية التي يجتمع بها الهم والخاطر وصحة القصد إلى الله في السلوك. وموت التفرقة ينشأ من تعلق النفس بالأشياء الزائلة الفانية. فإن من أحب شيئاً حُشر معه. قال الله تعالى: ﴿لا يَذُوقُونَ فيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولى﴾، ﴿وَلا يَمْلكُونَ مَوْتاً وَلا حَياةً﴾

ونفَس الاضطرار يكون أوائل السلوك عند الانقطاع عن كل ما سوى الحق، وقطع التعلق بما في الكون، لعلمه بعجزها، فيضطر إلى الله ويلجأ إليه. فمن أدرك عجزه وعجز الأشياء من حوله، تنفّس نفس الاضطرار فيتروّح منقطعاً إلى الغني القدير.

ونفَس الافتقار يجمعه بالحق، لعلمه بأن الحول والقوة والملك كلها لله.

ونفَس الافتخار يحصل من شهود التجليات الجزئية لحضرة الأسماء الإلهية، ومن رزق ذلك، ألبسه الله صفاته، فله مقام الفخر بالوجود على دائرة الإمكان. ولا فخر إلا لله بالله.

وحياة الوجود تحصل بعد اضمحلال رسومِ العبد بالفناء في الحق، ويكون بعد شهود قيومية الحق للكل، بحيث لا يرى شيئاً من الأشياء إلا وهو قائم بالله. فحياة الكل هي حياة الله. ومن رزق هذه الحياة فله الحياة الأبدية.

ونَفَس الهيبة هو أول سطوات نور الوجود. فهو يتنفّس من جرّاء سطوع نور الذات بأنفاس الهيبة.

والاعتلال يكون من وجود البقية، ومن أدرك نور تجليات الذات اضمحل وجوده وفنيت إنيّته.

ونفَس الوجود هو التروح إلى شهود نور الحق، وهو يمنع الانفصال لأنه يرى الأشياء بوجوده تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنتُم﴾ قال أمير المؤمنين عليه السلام في وصف معية الحق: "مع كل شيء لا بمقارنة".

ونفَس الانفراد بشهود الفردانية الإلهية، وهو أن يشهد انفراد الحق تعالى بالوجود الحقيقي، وإن الظل الممدود المنبسط على الأشياء، ليس إلا وجود الحق المتجلي في صور تعيناته الذاتية.

وإنما ورّث الاتصال، لأن الاتصال الحقيقي لا يكون إلا من خلال الوجود. فإن كل شيء هالك إلا وجهه.

وليس وراء ذلك ملحظ للنظارة، إذ ليس هناك غير وغيرية، ولا مقام تنظر إليه الأعين الباطنية.

وإذ لا ثنوية فلا طاقة للإشارة. فإن الإشارة تكون من ثنائية المشير والمشار إليه.

القبض

قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ قَبَضْناهُ إِلَيْنا قَبْضاً يَسيراً﴾ [46/25]

القبض في هذا الباب اسم يشار به إلى مقام الضنائن الذين ادّخرهم الحق تعالى اصطناعاً لنفسه.

وهم ثلاث فرق:

فرقة قبضهم إليه قبض التوقي، فضنّ بهم على أعين العالمين.

وفرقة قبضهم بسترهم في لباس التلبيس، وأسبل عليهم كلال الرسوم، فأخفاهم عن عيون العالم.

وفرقة قبضهم منهم إليه، فصافاهم مصافاة السر، فضنّ بهم عليهم.

تعليقات

يستعمل القبض قبل مقام الولاية في المعاملات والمقامات القلبية بمعنى الوارد الذي يوجب انقباض السالك عند فقدان وارد البسط وزوال الوجد واستتار نور التجلي. أما بعد كمال الولاية، فإنه يستعمل فيما إذا قبض الحق من يضن بهم لنفسه بمحض الاصطفاء.

والفرقة الأولى جماعة انفردت عن الجمع الكثير، حجزهم الحق عن مخالطة الخلق، وأخفاهم عنهم وقاية لهم. وتوقّاهم بخمول الذكر للأنس به. فعندما لا يستحق الخلق أن يكونوا معهم، يخفيهم عنهم.

والفرقة الثانية قبضهم عن أن يُعرفوا بحقيقتهم بإلباسهم لباس العوام، فلُبس على الخلق حالهم مع أنهم معهم. فأرخى عليهم أغطية الرسوم، سواء أكانت العادات التي عليها الناس أم قيود الإمكان في الظاهر. فهم غير معروفين بالولاية لتشبههم بالعوام.

والثالثة هم المستورون عن أنفسهم، لاصطفائهم في السر، ومصافاتهم للحق دون سواه. فهم غائبون عن أنفسهم فيه، وعن رتبتهم لغاية الغيرة عليهم وعزتهم عنده.

وقيل إنهم لم يبلغوا البقاء بعد الفناء حتى يشاهدوا الخلق بالحق، أو رؤية أنفسهم.

البسط

قال الله تعالى: ﴿يَذْرَؤُكُمْ فيه﴾ (11/42)

البسط أن يرسل شواهد العبد في مدارج العلم، ويسبل على باطنه رداء الاختصاص. وهم أهل التلبيس.

وإنما بسطوا في ميدان البسط لأحد ثلاثة معانلكل معنى طائفة:

فطائفة بسطت رحمته للخلق، يباسطونهم ويلابسونهم، فيستضيؤون بنورهم، والحقائق مجموعة والسرائر مصونة.

وطائفة بسطت لقوة معانيهم واستحكام مناظرهم. لأنهم طائفة لا تخالج الشواهد مشهودَهم، ولا تضرب رياح الرسوم موجودهم، فهم منبسطون في قبضة القبض.

وطائفة بسطت أعلاماً على الطريق، وأئمة للهدى، ومصابيح للسالكين.

تعليقات

كما أن الحق تعالى يذرأ الناس، أي يخلقهم ويكثرهم ويبثهم، كذلك في هذا البسط دبّر أمورهم بإيجاد هؤلاء الكمّل المذكورين في هذا الباب، فأنشأ النفوس المستعدة لفيضهم وتكميلهم، وهيّأ أسباب الاجتماع والمصاحبة والنظام من أجل إيصالهم إلى السعادة الكبرى.

والبسط هو إدغام شواهد العبد من الواردات والتجليات الشاهدة على حاله وإدراجها في مراتب العلم الظاهر، فيستعمله في أحكامه وظاهره بحيث لا يتميّز عن العوام.

ويسبل على باطنه ويستره برداء الاختصاص. فهو في الباطن من أهل الخواص مستور، وفي الظاهر معروف مشهور.

فالله تعالى لبّس حالهم على الخلق بستر بواطنهم بظواهرهم. وأرسلهم بين الناس لحِكَم ثلاث.

منها: الرحمة بالخلق، ليحصل لهم ببركة صحبتهم ومخالطتهم الاستفادات المعنوية، ويتخلصوا من استيلاء الخوف أو اليأس بملاحظة سعة الرحمة والتوفيق الظاهرين على هذه الطائفة. ويحصل لهم كذلك الاستضاءة من علومهم ومعارفهم، والتخلق بأخلاقهم، ونيل شفاعتهم. هذا كله، ولا تتشتت بواطنهم أو تتفرق عن الحقائق التي هم عليها، ولا تُخرق أسرارهم وبواطنهم. فهم مع ذلك مجهولون في أحوالهم مع الله، وقد صان الحق تعالى سرائرهم من أن تنتهك. وقيل أن المقصود بهذا هو أنهم مع انبساطهم على الناس وكثرة مخالطتهم لا يظهرون لهم ما لا يجوز إظهاره. فلا تجد التفرقة والبوح والشطح إليهم سبيلاً بوجه من الوجوه.

ومنها حالة طائفة ثانية بُسطت لقوة استعداداتهم ورسوخ معانيهم، لأن معارفهم ومواجيدهم مغروزة فيهم كالشيء الجبلّي الذي لا يمكن إزالته. فهم لا يتأثرون بالتفرقة مهما انبسطوا. فمشاهدهم في غاية القوة والإحكام، لا يحجبها شيء قط عنهم.

لأنهم طائفة لا تشرب التجليات الأسمائية الجزئية مشهودهم الذي هو عين الجمع وحضرة الوجود الأحدية، ولا يقعون في حجاب الأسماء وكثرتها، ولا تصل أحكام الرسوم إلى موجودهم، لأن التجلي الوجودي لا يذر من الغير والسوى أثراً ولا سمة. فلا رائحة للرسوم الخلقية في تلك الحضرة الأحدية.

فهم منبسطون في الظاهر، لكن حقائقهم وبواطنهم في قبضة الحق، لا يرسلهم إلى الخلق لفناء الخلق في شهودهم. فانبساطهم مع الحق، وإن كان الخلق يحسبون أنهم معهم.

والطائفة الثالثة هم الذين كانوا قبل ختم النبوة من الأنبياء، ومن بعدها إلى يوم القيامة من الأولياء. بسطوا ليعرفوا الناس على الصراط. فهم أعلام الهدى ومنارة الدرب ونجوم الليل. بهم يُقتدى وبمصابيحهم يُهتدى.

رجعوا إلى الخلق بالحق، وجعلهم مظاهر اسمه الهادي.

السكر

قال الله تعالى عن كليمه عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ [143/7]

السكر في هذا الباب اسم يشار به إلى سقوط التمالك في الطرب.

وهذا من مقامات المحبين خاصة. فإن عيون الفناء لا تقبله، ومنازل العلم لا تبلغه.

وللسكر ثلاث علامات:

1. الضيق عن الاشتغال بالخبر والتعظيم قائم
2. واقتحام لجّة الشوق والتمكن دائم
3. والغرق في بحر السرور والصبر هائم.

وما سوى ذلك: فحيرة تنتحل اسم السكر جهلاً، أو هيمان يسمّى باسمه جوراً.

وما سواهما فكله نقائض البصائر، كسكر الحرص، وسكر الجهل، وسكر الشهوة.

تعليقات

لولا سكر الحال ما سأل الرؤية مع بقاء الإنية. ولولا اندكاك جبلها لما حصلت الرؤية بعد التجلي.

والسكر اسم يشار به إلى زوال الصبر لاستيلاء سلطان الطرب بالحب. ولما كان السكر مشوباً بالحيرة، فإن حقائق الفناء لا تقبله، لأن أهل الفناء منسلخون عن الرسم في مقام الشهود، فلا يكون لهم تردد بين الخلق والحق. والمحبة برزخ بين بحري العلم والشهود، والسكر هو البرزخ.

المحبة أول أودية الفناء، والعلم يحكم ببقاء الإنية والتعينات.

وأولى علامات السكر أن المحب السكران لشدة وجده وشغله بالمحبوب يضيق عن سماع الخبر الدال على الحجاب، لأنه في أنسه بالمحبوب لا يغفل عنه طرفة عين، فكيف يحتمل ذلك الحجاب. وليس ذلك كرهاً أو استخفافاً بمقام النبوة التي هي أصل الخبر، أو بالأحاديث الصادرة عنها. فإنها من جهة أخرى تدل على ما هو أبعد من الظاهر وقيوده.

والثانية الغرق في لجة بحر الشوق ولوعته دون أن يدعوه ذلك إلى ترك التمكن والعودة إلى التلوّن. ورغم أن الشوق لا يكون إلا مع البعد، فإن ثباته على الحق لا يزول.

والثالثة غرق في بحر السرور بشواهد قرب المحبوب، مع أن صبره عن المحبوب مفقود، كأنه هام وتحيّر ذاهباً في تيه الحيرة.

وأحكام المحبة والسكر أمور غير مضبوطة لا يعرفها إلا من وقع فيها وذاق نعيمها.

وقد يشتبه السكر بالحيرة العارضة لأهل المحبة، وينتحل لها الجاهل اسم السكر. وقد يشتبه بالهيمان الذي هو مقام في الأحوال. وهو في الحقيقة حال للمحبين، لا يبلغ السكر الذي هو من وادي الحقائق. وهذان، أي الحيرة والهيمان، وإن لم يكونا من السكر في قسم الحقائق، لكنهما محمودان. وما سواهما فأمور مذمومة تسمّى سكراً، وهي ضد البصيرة وعدوها، كالحرص والشهوة والجهل.

الصحو

قال الله تعالى: ﴿حَتَّى إِذا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قالُوا ماذا قالَ رَبُّكُمْ قالُوا الْحَق﴾ [23/34]

الصحو فوق السكر وهو يناسب مقام البسط.

والصحو مقام صاعد عن الانتظار، مغنٍ عن الطلب، طاهر من الحرج، فإن السكر إنما هو في الحق، وكل ما كان في عين الحق لم يخلُ من حيرةلا حيرة الشبهة، بل الحيرة في مشاهدة نور العزّةوما كان بالحق لم يخلُ من صحّة، ولم يُخَف عليه من نقيصة، ولم يتعاوره علّة.

والصحو من منازل الحيوة، وأودية الجمع، ولوايح الوجود.

تعليقات

إذا أزيل صفا الشهود الغالب على العلم في نهاية مقام المحبة التي تقتضي السكر وصحا صاحبه قال: ﴿ربنا الحق﴾ وإنما كان الصحو فوق السكر لأن السكر محيّر يؤذن بالغيبة مع وجود البقية. والصحو معرّف مخبر عن صفو الشهود وفناء البقية في الكامل. وإن ما يناسب الصحو مقام البسط لأن الصحو يكون عند السلو عن الشوق بلذة الوصال. والسلو يعطي الفراغ والفراغ يقتضي البسط. فالصحو آخر مقام السلو عن الشوق للفراغ الحاصل بالوصال وشهود الجمال.

وإنما ارتفع مقام الصحو لأنه مقام الشهود التام، والتمكن في حضرة الجمع والشهود. فليس فوقه مقام ينتظره الشاهد لأنه في أعلى المقامات. والطلب بعد الوصول والكمال التام يقتضي الفراق والانحطاط إلى النقصان ولهذا قيل: السالك إن سكن هلك والعارف إن تحرّك هلك.

ولأنه قد ظفر بالمطلوب وفاز بالمحبوب ونال ما هو فوق كل مراد واندرج تحته كل رتبة ومقام فهو في سعة من العيش طاهر من الحرج والضيق. ومن كان في الحق وهو السالك في الأسماء وتجلياتها وكثرتها وهي من وجه حجاب الذات، ومن كان بالحق جذبته حضرة الأحدية بعد كشف سبحات الجلال وشهود أنوار الجمال والأول لا يخلو من حيرة لوجود بقية السالك لكنها ليست حيرة الشبهة في أن المشاهد هو الحق. والثاني صحيح لأنه فنى عن عينه ورسمه حتى وُجد بالوجود الحقاني في مقام البقاء بالحق وهو الآمن من كل نقائص الإمكان لا تعتريه علّته ولا حجبه.

وإنما كان الصحو من منازل الحياة لأنه بالحق وحياة الحق عين وجوده فمن أدرك وجود الحق نال الحياة بحياته سبحانه.

وأودية الجمع ليست إلا لوائح الوجود الجاذبة إلى حضرة الذات.

الاتصال

قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنا فَتَدَلَّى، فَكانَ قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى﴾ [53/8-9]

أيأس العقول، فقطع البحث بقوله: ﴿أَوْ أَدْنى﴾.

والاتصال ثلاث درجات:

الأولى: اتصال الاعتصام وهو تصحيح القصد ثم تصفية الإرادة ثم تحقيق الحال.

الثانية: اتصال الشهود وهو الخلاص من الاعتلال والغنى عن الاستدلال وسقوط شتات الأسرار.

الثالثة: اتصال الوجود وهذا الاتصال لا يُدرك منه نعت ولا مقدار إلا اسم معار ولمحٌ إليه مُشار.

تعليقات

يشير العرفاء بالقوسين إلى قوسي النزول والعروج ولكل إنسان هذه الدائرة لكن لرسول الله(ص) الدائرة التي تحيط بكل الدوائر لكونه مظهر "رحمتي وسعت كل شيء"، ولهذا دنا فتدلى إلى مقام أو أدنى، وهو غاية الاتصال. ولما كان معنى الاتصال عند العقول يشعر بالإثنينية قطع البحث بقوله أو أدنى. فقد ذُكر في باب الاعتصام من قسم البدايات أن الاعتصام بالله والترقي عن كل موهوم والتخلص من كل تردد. فاتصاله في هذا الباب أن يشهد أن ذلك التردد والتخلص كان بالله في الحقيقةلا بنفسه كما توهّم في البدايات. فإذا شهد الحق في مقام الاتصال علم معنى قول أمير المؤمنين علي عليه السلام في بيان الحقيقة: "صحو المعلوم مع محو الموهوم"، فإن المعلوم في هذا الشهود هو الحق وحده.

وتصحيح القصد هو عن كل تردد. وإنما صححه الاتصال لفناء القاصد وقصده في بحر الوجود وتصفية الإرادة هي شهود إجابة دواعي الحقيقة بعين الحقيقة من الحقيقة. فالإرادة هي الإجابة وبالاتصال يفنى رسم المجيب.

وتحقيق الحال أن يشهد التأثير من التجلي لا من نفس الحال.

وفي اتصال الشهود يخلص من علل الإمكان ورسومه فيستغني عن الاستدلال لشهود الحقيقة من غير حجاب. والاستدلال لا يكون إلا مع الحجاب والإثنينية. وإذا ترقّى عن الحضرة الأسمائية خرج من تشتت الأسماء والصفات التي هي أضداها كالجمال والجلال والقهر واللطف. فإن لكل منها أسراراً وحكماً مختلفة تزول اختلافاتها بالترقي عن هذه الحضرة إلى حضرة الذات، وهو الاتصال.

والوجود اسم يُشار به إلى وجود الحق من غير إشارة. واتصال الوجود هو فناء وجود العبد في وجود الحق. ولهذا لم يكن له نعتٌ، لأن النعت يقتضي النعت والمنعوت والناعت. والوجود ليس فيه أي تكثّر وقد استعمل للاتصال اسم الفناء، وهو هنا اسمٌ بلا مسمّى. ولم يُشر إلى الاتصال إلا باللمح وهوارتفاع الوهم عند صفاء شهود الحق. وهذا غاية ما يمكن عنه العبارة.

الانفصال

قال الله تعالى: ﴿ وَ يُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَه﴾ [30/3]

وليس في المقامات شيء فيه من التفاوت ما في الانفصال.

ووجوهه ثلاثة:

أحدها: انفصال هو شرط الاتصال، وهو الانفصال عن الكونين بانفصال نظرك إليهما، ونفس توقفك عليهما، وانفصال مبالاتك بهما.

الثاني: انفصال عن رؤية الانفصال الأول. وهو أن لا تعطي وزناً للكونين في شهود التحقيق يوصل عند الانفصال عنهما إلى شيء.

والثالث: انفصال عن الاتصال، وهو انفصال من شهود مزاحمة الاتصال بعين السبق. فإن الانفصال والاتصال مع عظيم تفاوتهما في الاسم والرسم في العلّة سيّان.

تعليقات

الانفصال هو انفصال العبد عن رسمه ورسوم الخلق كلهم. وليس في الانفصال درجاتٌ يجمعها مشترك يُذكر؛ وكأنها أمور متباينة الحقائق، ولهذا عبّر عنها بالوجوه.

فما كان شرطاً لاتصال العبد بالحق هو الانفصال عن الدنيا والآخرة كما ورد عن الإمام الصادق(ع): "الدنيا حرامٌ على أهل الآخرة، والآخرة حرامٌ على أهل الدنيا، والدنيا والآخرة حرامان على أهل الله." فيقطع النظر إليهما والتوقف عليهما في شيء ظناً بأنه موصلٌ ولا يعبأ بهما أو يعتبر لهما قدراً ووزنا.

فإذا رأى انفصاله عن الكونين، صار لزاماً عليه أن ينفصل عن هذه الرؤية لأنها فرع إعطائهما وزناً وقدرا وهما عند شهود التحقيق بلا وزن. فإذا رأى أن انفصاله عنهما أوصله إلى شيء احتاج إلى الانفصال الثاني. وقد قيل: إنه لا انفصال عن العدم.

والوجه الثالث انفصال عن الاتصال لأن الاتصال وإن كان مقاماً عظيماً لكنه يزاحم عين السبق الذي هو حقيقة أزلية الذات الأحدية وهي أجلّ من أن يتصل بها شيء أو ينفصل. فلا بد للعارف أن ينفي عن شهوده مزاحمة الاتصال عين السبق وإلا لكانت بقيته من الوجود الموهوم باقية.

فالاتصال والانفصال وقعا في نظر السالك بناءً على توهم وجود الغير واستقلال الظل الخيالي بنفسه. لذلك كان كلٌ من الاتصال والانفصال معلولين بدلالتهما على الاثنينية، ولا اثنينية في شهود الحقيقة. فالفاني فانٍ منذ الأزل والباقي باقٍ لم يزل.

قسم النهايات

المعرفة والفناء والبقاء

والتحقيق والتلبيس والوجود

والتجريد والتفريد

والجمع والتوحيد

وهي أمور ومقامات تحصل بعد السلوك والوصول بانتهاء السير إلى الله. كما أن البدايات أمور تتقدم على السلوك عند الانتباه والقيام من نوم الغفلة.

المعرفة

قال الله تعالى: ﴿وَإِذا سَمِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِ﴾.() [83/5]

المعرفة إحاطة بعين الشيء كما هو وهي على ثلاث درجات، والخلق فيها ثلاث فرق:

الأولى: معرفة الصفات والنعوت. وقد وردت أساميها في الرسالة وظهرت شواهدها في الصنعة بتبصير النور القائم في السرّ، وطيب حياة العقل لزرع الفكر، وحياة القلب بحسن النظر بين التعظيم وحسن الاعتبار، وهي معرفة العامة التي لا تنعقد شرائط اليقين إلا بها.

وهي على ثلاثة أركان:

- إثبات الصفة باسمها من غير تشبيه.
- ونفي التشبيه عنها من غير تعطيل.
- والأياس من إدراك كنهها وابتغاء تأويلها.

الثانية: معرفة الذات، مع إسقاط التفريق بين الصفات والذات وهي تثبت بعلم الجمع، وتصفو في ميدان الفناء، وتستكمل بعلم البقاء، وتشارف عين الجمع:

وهي على ثلاثة أركان:

- إرسال الصفات على الشواهد
- وإرسال الوسائط إلى المدارج
- وإرسال العبارات على المعالم

وهي معرفة الخاصة التي تونس من أفق الحقيقة.

الثالثة: معرفة مستغرقة في محض التعريف، لا يوصل إليها الاستدلال، ولا يدل عليها شاهد، ولا تستحقها وسيلة.

وهي على ثلاثة أركان:

- مشاهدة القرب
- والصعود عن العلم
- ومطالعة الجمع

وهي معرفة خاصة بالخاصة.

تعليقات

قيل أن العلم هو إدراك لصورة الشيء، والمعرفة إدراك لعين الشيء. فالعلم إدراك بالواسطة والصورة الزائدة، والمعرفة إحاطة. وقد سمّي الأول علماً حصولياً، والثاني علماً حضورياً؛ وفيه يحضر ذات المعلوم في ذات العالم من غير واسطة. وهو معنى اتحاد العالم والمعلوم الذي أثبته الحكماء المتألهون.

وحيث أنه لا يُتصور للحق حد أو صورة منتزعة، فإن العلم به حجاب لن يكون سوى حجاب: "فكل ما تصورتموه في أوهامكم فهو مخلوق مثلكم" كما قال صادق أهل البيت عليهم السلام.

والدرجة الأولى من المعرفة تكون في الغيبة، لأنها معرفة بالصفة والنعت. ولهذا قال الامام الصادق عليه السلام: "معرفة عين الشاهد قبل صفته ومعرفة صفة الغائب قبل عينه". فلا يحتاج إلى معرفة الشيء بصفته إلا من كان محتجبا عنه.

وهذه المعرفة تحصل من خلال ما ورد في الرسالة أو ظهر في الخلق والصنائع، فإنها جميعاً آثار صفاته وشواهد أفعاله. وما كان لأحد أن يبصر هذه الشواهد ويدرك آيات النعوت لولا هذا النور الإلهي المودع في سر الإنسان. فقد ظهرت لنا شواهد صفات الحق بتبصيره لنا. قال الإمام الصادق(ع): "ما عرف أحدٌ أحداً إلا بالله."

وأول ما فيه إفاضة القابلية للمعرفة، وهي العقل الحي الذي يصلح لزراعة الأفكار المستقيمة؛ وإنما حياة القلب بتجرده عن غواشي النفس والبدن وتصفيته عن كدر الطبيعة.

والدرجة الأولى معرفة العامة، وهم المتبدئون. وبدونها لا ينالون درجة اليقين.

أما أركان هذه المعرفة فهي:

1. إثبات الصفات كما وردت دون تشبيهها بصفات الخلق. فالله تعالى سميع لكن سمعه تعالى لا يشبه سمع المخلوقات الحاصل بالآلات والوسائط. وحياة الله تعالى لا تشبه حياة الكائنات التي تقوم (في درجة منها)

بالحركة والنمو وغيرها.

2. ومعرفتها من غير تعطيل. فقد ينزّه الإنسان ربّه عن التشبيه، فيسوقه ذلك إلى التعطيل، فيقول أنه عليم لكن علمه تعالى لا يشبه علمنا بشيء ولا يمكن أن نتصور منه شيئاً؛ وأن قدرة الله لا علاقة لها بالقدرة التي نعرفها. وهذا هو القائل بالاشتراك اللفظي بين صفات الخلق والحق.
والعارف يقول أن علمه سبحانه ليس كعلمنا، لكن علمنا رشحة أو تجلٍّ من علم الحق وحياتنا مظهر محدود لحياته سبحانه.

3. ولهذا لا يمكن لأحد إدراك كنه الصفات بمعنى الإحاطة بكل مراتبها، لأنها في حقيقتها عين الذات.

وقد ذُكر أن معرفة كل عارف لا تكون إلا بقدر سعة وجوده وبما عرّفه الله تعالى من نفسه. فلا يدرك كنه صفات الحق، إلا بعد فناء صفاته في صفات الحق وتجليه على قلبه في الحضرة الأحدية.

والدرجة الثانية تختص بأهل التجليات الأسمائية وأصحاب شهود الحضرة الإلهية، حيث يكون الحق سمع العبد وبصره. فإذا شهد صفات الحق فيه من حيث أنه تعالى يبصر به ويسمع، فحينئذٍ يعرف الذات مع إثبات التفريق بين الصفات والذات، لأنه يشهد الذات مع اعتبار النسبة، وهو الاسم الذي هو عين الذات، فيرى الصفة عين الذات بالحقيقة وغيرها بالاعتبار.

وليس هذا هو الشهود الذاتي الذي هو الفناء في عين الجمع، لأن الأخير عبارة عن شهود الذات بلا مزاحمة النسب والاعتبارات (وهي حجب الكثرة الأسمائية) بل من حيث أحدية الذات.

فهذه الدرجة من المعرفة تثبت بعلم الجمع، لا بعين الجمع. وهو العلم بأن مسمّى جميع الأسماء ذات واحدة. فمسمّى كل اسم مسمّى جميع الأسماء. ولهذا قال المحققون: "إن كل اسم إلهي يتصف بجميع الأسماء".

وهذه المعرفة لا تصفو إلا في ميدان الفناء، وهو عين الجمع. فما دامت للسالك بقية من إنيته، فإن معرفته متكدرة. وتستكمل بعلم البقاء، لأن هذا العلم يظهر النسب والصفات الرسوم الفانية في مقام الفناء الموجودة بوجود الحق، بلا تفريق بين الصفات والذات.

ولما كانت الدرجة الثانية من المعرفة في الحضرة الواحدية (وهي حضرة جمع الأسماء)، فإنها تكون مشرفة على الحضرة الأحدية. فإنه إذا انكشف حجاب الكثرة الأسمائية عن وجه الذات الأحدية، كانت الواحدية عين الأحدية.

وأركان هذه المعرفة ثلاثة:

1. إرسال الصفات على الشواهد؛ فلما كانت الشواهد، وهي البوارق والتجليات، عند لمعانها وأوائل ظهورها عند الشاهد أغياراً، صار لزاما أن يترقّى في القرب حتى يكاشف بأنها صفات الذات. وهو إسقاط التفريق.
2. وهو أن يشهد أن الوسائط هي الدرجات التي يترقى فيها إلى المقصود.
3. أن يشهد أن العبادات المرشدة الهادية هي معالم الطريق. فإرسالها هو إطلاق معانيها عند الشهود على معانٍ حسبها قبل الشهود غيرها.

وهذه المعرفة تشبه النار التي تونس من جانب وادي الجمع، فهي أنوار تجليات الأسماء التي تشرق من أفق الحقيقة، أي من مقام خاصة الخاصة على قلوب الخاصة.

والدرجة الثالثة معرفة تحصل من تعريف الحق ذاته بذاته، وهي قوله صلى الله عليه وآله: "إلهي لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك". قال تعالى لنبيه موسى عليه السلام: ﴿إنني أنا الله لا إله إلا أنا﴾، وهي معرفة عين الشاهد قبل صفته.

وإذا عرّفنا تعالى نفسه بتجلي ذاته، ارتفع الحجاب، وانتفى الاستدلال، لأن طلب الدليل دليل الإحتجاب. فلا يطلب الدليل بعد المشاهدة إلا من حرم من الوصال.

ولفناء الكل في المشهود تزول الشواهد بما هي شواهد، وترتفع الوسائل عند إشراق نور الحقيقة، وتقطّع الأسباب عند تجلي السبب الواحد.

وأول أركان هذه المعرفة مشاهدة القرب بمحو الرسوم. فعلى قدر محو الرسوم يكون القرب، وعلى قدر بقائها يكون البعد. فليس الحجاب إلا قيود الأنا ورسومها.

وثانيها الصعود عن العلم، فإن العلم حجاب.

وثالثها مطالعة الجمع بفناء الكل في تجلّي الذات، وهو المطلوب.

الفناء

قال الله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْها فان، وَيَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالْإِكْرام﴾ [55: 26-27]

الفناء في هذا الباب اضمحلال ما دون الحق علماً، ثم جحداً، ثم حقاً.

وهو على ثلاث درجات:

الأولى: فناء المعرفة في المعروف، وهو الفناء علماً.

وفناء العيان في المعاين، وهو الفناء جحداً.

وفناء الطلب في الوجود، وهو الفناء حقاً.

الثانية: فناء شهود الطلب لإسقاطه

وفناء شهود المعرفة لإسقاطها

وفناء شهود العيان لإسقاطه

الثالثة: الفناء عن شهود الفناء، وهو الفناء حقاً شائماً برق العين، راكباً بحر الجمع، سالكاً سبيل البقاء.

تعليقات

إذا علم أن الحق هو عين الوجود، فيكون ما يقابله عدماً مطلقاً. وإذا عاين ذلك جحد ما دون الحق وأنكره. حتى يجد حقيقة الحق بالحق، فيجد الحق عين الكل، فلا يبقى لغير الحق رسم؛ فلا موجود إلا هو وحده.

والأولى هو الفناء علماً. والثاني الفناء جحداً، والثالث الفناء حقاً.

أما الدرجة الأولى فهي المشار إليها في باب المعرفة تحت عنوان اتحاد العالم بالمعلوم. فإن إدراك العبد للحق لا يمكن أن يكون بحصول صورته فيه، لامتناع حصول صورة مطابقة للحق في العقل. ولا يحصل هذا الاتحاد إلا بفناء السالك في الحق علماً، أي فناؤه العلمي في علم الحق. فالعالم والمعلوم (أي المعروف) والمعرفة أمر واحد.

وقد مرّ أن مسيرة الفناء تبدأ بفناء أفعال العبد في أفعال الحق المعبّر عنه بقوله تعالى: ﴿وَما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمى﴾، وهو ما يحصل في التوحيد الأفعالي.

وبعدها يبدأ فناء الصفات، ودرجاته كثيرة، منها فناء علم العبد في علم الحق، وصيرورة معرفته معرفة الله بنفسه بحسب استعدادات العبد.

ويحصل منها فناء العيان، فإنه لا يمكن أن يعاين الحق إلا بالحق عند فناء الرسوم كلها فيه، فيجحد وجود السوى.

وأما فناء الطلب في الوجود، فلأنه إذا وجد الحق بالحق، بلغ الغاية، فلم يبق طلب، وفنى في وجود المطلوب. وهو الفناء حقاً.

وفي الدرجة الثانية وبعد أن شهد سقوط الطلب في المطلوب يفنى عنده هذا

الشهود. لأنه في كل شهود مستلزم للاثنينية. فيفنى أيضاً عن شهود سقوط المعرفة وشهود سقوط العيان. فإن ما حصل للسالك في الدرجة الأولى من الفناء الذي أدّى إلى الشهود، يستتبع فناءً أعلى، وهو فناء هذا الشهود في أوجهه الثلاثة.

والدرجة الثالثة فناء ذلك الفناء. لأنه يكون قد شهد فناء شهوده الأول، فحصل له شهودٍ ثان هو أعلى. فيكون في درجته هذه فانياً عن شهود ذلك الفناء، وهو الفناء حقاً. مع نظره إلى نور عين الجمع، وهو مستغرق في لجة بحاره مع استيلائه عليه بالتمكن فيه، وبلوغه غايته وهي بداية البقاء.

البقاء

قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [20: 73]

البقاء اسم لما بقي قائماً بعد فناء الشواهد وسقوطها.

وهو على ثلاث درجات:

الأولى: بقاء المعلوم بعد سقوط العلم عيناً، لا علماً.

الثانية: بقاء المشهود بعد سقوط الشهود وجوداً، لا نعتاً.

الثالثة: وبقاء ما لم يزل حقاً، بإسقاط ما لم يكن محواً.

تعليقات

لما كان الفناء أمرا يتعلق بالرسوم الخلقية، فهو فناؤها في الحق؛ كان صفة الخلق، والبقاء صفة الحق، فالباقي هو الله.

والشواهد هي الرسوم الخلقية ومحال الظلال الحادثة من اختفاء النور، فهي آثار تشهد بالحق. وهي الواردات والتجليات الشاهدة للعبد بصحة السلوك وقرب الحق. فالباقي بعد فنائها ليس إلا الحق. ولا يكون البقاء قبل حضرة الجمع.

فالباقي في الحقيقة ليس إلا الله ووجهه الدائم. ومن بقي بالحق، ألبسه الله صفات جماله وجلاله.

وإذا فني علم العبد بقي المعلوم. وبقاؤه لا يكون عن علم، وإلا لم يفنَ علم العبد. فبقاؤه تعالى إنما يكون بعد فناء العلم في العين، وهي الدرجة الأولى.

والدرجة الثانية هي بقاء الحق تعالى من حيث وجوده، لا من حيث مشهوديته، فتسقط النعوت في حضرة الوجود.

وبعدها يبقى العبد بعد فناء وجوده بالوجود الحقاني. فهو عبد أعاده الله تعالى بعد فنائه، وألبسه خِلعاً من صفاته، فشاهد الحق بعين الحق، قائماً به في مقام عبوديته.

التحقيق

قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قالَ بَلى وَلكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبي﴾ [260/2]

التحقيق تخليص مصحوبك من الحق، ثم بالحق، ثم في الحق. وهذه أسماء درجاته الثلاث.

أما درجة تخليص مصحوبك من الحق: فأن لا يخالج علمُك علمه.

والثانية: فأن لاينازع شهودك شهوده.

والثالثة: فأن لا يناسم رسمُك سبقه

فتسقط الشهادات، وتبطل العبارات، وتفنى الإشارات.

تعليقات

إذا عرف العبد الحق معرفة إيمان وإيقان، طلب ذلك على سبيل التحقيق، وهو ما يعبّر عنه بحق اليقين. فإذا كان علم اليقين ما يحصل بالدليل والدليل لا يكون إلا عن غائب. وعين اليقين هو كالحضور أمام المعلوم، كمشاهدة النار عن قرب، فإن حق اليقين كالاحتراق بالنار.

والتحقيق تجريد ما صحبك من صفات الحق من الحق، عن شوب رسمك في مقام البقاء بعد الفناء. ثم تخليص ذلك المصحوب من رسمك بالحق لا بك، ثم في الحق.

فالأولى أن لا يداخل علمُك علمه تعالى، ولا يظهر شيء من صفاتك في صفاته. فتشهد العلم الذي يظهر فيك على أنه علمه تعالى. فتنسب العلم، الذي كنت تنسبه قبل الفناء إلى نفسك، في حال التحقيق إلى الحق.

والثانية أن لا يعارض شهودك شهوده، فتنسب الشهودالذي كنت تنسبه قبل الفناء إلى نفسكحال البقاء إلى الله تعالى. فيكون شهودك بالحق لا بك، منزهاً عن شوب شهودك.

والثالثة أن لا تُنسم رائحة رسمك الذي هو حدوثك على أزليته. فإن الحادث لا يبقى مع تجلّي القديم. فلا ترى أنك معه، بل هو وحده على ما كان في الأزل.

ولأنك لم تشهد معه غيره، فقد ارتفع معنى "شاهد ومشهود" وزال حكم الاثنينية. وسقطت الشهادات. وبطلت العبادات وفنت الإشارات.

التلبيس

قال الله تعالى: ﴿وللبسنا عليهم ما يلبسون﴾ [9 5]

التلبيس تورية بشاهد معارٍ عن موجود قائم.

وهو اسم لثلاثة معانٍ:

أولها: تلبيس الحق بالكون على أهل التفرقة، وهو تعليقه الكائنات والأكوان وربطها بالأسباب والأماكن والأحايين، وتعليقه المعارف بالوسائط، والقضايا بالحجج، والأحكام بالعلل، والانتقام بالجنايات، والمثوبة بالطاعات. فأخفى الرضا والسخط اللذين يوجبان الفصل والوصل، ويظهران السعادة والشقاء.

ثانيها: تلبيس أهل الغيرة على الأوقات بإخفائها، وعلى الكرامات بكتمانها، والتلبيس بالمكاسب والأسباب وتعليق المظاهر بالشواهد والمكاسب تلبيساً على العيون الكليلة والعقول العليلة، مع تصحيح التحقيق عقداً وسلوكاً ومعاينةً.

وهذه الطائفة رحمة من الله عز وجل على أهل التفرقة والأسباب في ملابستهم.

ثالثها: تلبيس أهل التمكّن على العالم، ترحماً عليهم بملابسة الأسباب وتوسيعاً على العالم، لا لأنفسهم.

وهذه درجة الأنبياء ثم هي للأئمة الربانيين الصادرين عن وادي الجمع، المشيرين عن عينه.

تعليقات

الوجود المعار يكون للممكن، والموجود القائم هو الحق تعالى. والتلبيس هنا هو أن تكنّي على نحو التورية والإخفاء هذا الموجود القائم بمن كان وجوده معاراً. فإذا قلت أن فلاناً رمى فقد كنّيت به تورية عن الرامي الحقيقي...

والمعنى الأول للتلبيس هو ما فعله الحق تعالى مع أهل الحجاب في تعليق الأشياء بأشياء أخرى ليست في الحقيقة هي، كالحوادث بالأسباب والمعارف بالدراسة والرياضة وغيرها. فقد لبّس عليهم السبب الحقيقي، وهو أن رضى الله تعالى وسخطه هما الموجبان للوصول إلى الكرامة والقرب، أو الخزي والبعد.

وفي الدعاء عن الإمام زين العابدين(عليه السلام): "بل ملكت يا إلهي أمرهم قبل أن يملكوا عبادتك، وأعددت ثوابهم قبل أن يفيضوا في طاعتك.." (الصحيفة / دعاء الشكر).

إن أهل الحجاب يرون كثرة الأسباب، والموحد لا يلتبس عليه الأمر، فيرى الكل من رب العباد.

وأهل الغيرة والمحبة يغارون على أوقاتهم مع الله، بإخفائها عن الناس. ويكتمون كراماتهم عن الأغيار، صيانة لأنفسهم عن الرعونة، ولكي لا يخسروا جمعيتهم بمزاحمة الخلق لهم وإقبالهم عليهم.

فتلبيسهم إخفاء وكتمان، أو تظاهر بالاشتغال وربط بالأسباب حتى يظن الجاهل الأعشى أنهم عبدة الأسباب من كثرة اهتمامهم ورعايتهم بالظاهر لها.

والحكمة في هذا بسط الرحمة على المحجوبين بإبقاء أهل المحبة والوصال بينهم.

والمعنى الثالث: تلبيس أهل التمكين من الأنبياء وورثتهم على أهل العالم بملابستهم الأسباب، رحمة بالخلق، لا يعود عليهم من ذلك شيء، فهم منقطعون إلى الله واصلون إليه في مقام البقاء بعد الفناء، لا يخشون على أوقاتهم وأحوالهم.

فهم في عين ﴿إنما أنا بشر مثلكم﴾ و ﴿يمشي في الأسواق ويأكل الطعام﴾ لهم مع الله حالات لا يسعها ملك مقرب. رجعوا إلى الخلق بالحق، وأشاروا للناس إليه من عين الجمع.

الوجود

أطلق الله عز وجل في القرآن اسم الوجود صريحاً في مواضع، فقال عز من قائل:

﴿يَجد اللهَ غَفُوراً رَحيماً﴾ [4/110]

﴿وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَه﴾ [24/39]

الوجود اسم للظفر بحقيقة الشيء.

وهو اسم لثلاثة معان:

أولها: وجود علم لدني يقطع علوم الشواهد في صحبة مكاشفة الحق إياك.

والثاني: وجود الحق وجود عين، مقتطعاً عن مساغ الإشارة.

والثالث: وجود مقام اضمحلال رسم الوجود فيه بالاستغراق في الأولية.

تعليقات

الظفر بحقيقة الشيء أصفى مراتب شهود الشيء، كأنهم أشاروا به إلى وجود الحق عينه بعينه. فهو عين الحقيقة عند فناء الرسوم بالكامل، وفناء الإثنينية. ولا يمكن تعريفه، لأن معرفته وجوده، كما قال الحكيم السبزواري: والحق ماهيته إنيته.

والعلم اللدني الذي يحصل بدون وساطة، وهو من غيب الغيوب، يقطع العلوم الاستدلالية المأخوذة من الشواهد عند كشف الحق لك إياه. فهو يرفع حجاب العلم حال المكاشفة وقوة التجلي.

ووجود العين فوق وجود النعت. وعند إفراد الحقيقة وزوال الإثنينية تنقطع الإشارة تماماً.

ولما بقي وجوده الخلقي دون نعوته الفانية، احتاج إلى الوجود الحقاني. لأن وجود العبد مع وجود الحق رسم لا حق، والأولية قدم الوجود الحق وأزليته.

والاستغراق هو الفناء والاستهلاك. إذ لا رسم للحادث عند قِدم الحق. واستعار الاستغراق لمحو رسوم الأمواج كلها في بحر أزلية الحق، وبقاء الحق رهوا، وهو نهاية الوجود وأصفى مراتب الشهود.

التجريد

قال الله تعالى: ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ [20: 12]

التجريد انخلاعٌ عن شهود الشواهد.

وهو على ثلاث درجات:

الأولى: تجريد عين الكشف عن كسب اليقين

الثانية: تجريد عين الجمع عن درك العلم

الثالثة: تجريد الخلاص من شهود التجريد

تعليقات

التجريد الفعلي هو تجريد الحقيقة عن الكونين (المعبّر عنهما بالنعلين). والإنسان هو حقيقة الحق المتنزلة بالتعينات إلى عالمي الروح والجسم. وإذا انفردت الحقيقة صارت مجردة عن رسوم الغيرية والتعينات. وكل الوجودات شاهدة على وجود الحق، فهي في منظر السالك أثناء مراحل سفره شواهد الحق. والتجريد هو شهود الحقيقة المحضة من غير شواهدها.

وكسب اليقين هو العلم القطعي المكتسب. وهو من آثار الرسوم لوجود رائحة الكسب فيه. فالتجريد يقتضي تخليص عين الكشف منه.

والتجريد الثاني هو تجريد حقيقة الجمع عن الإدراك العلمي. فإن العلم من بقايا الرسوم، والجمع لا يكون إلا بمحو الرسوم والآثار.

فكأن الدرجة الأولى تخليص وتجريد للصفات من الأفعال.

والدرجة الثانية تجريد العين من الصفات.

والدرجة الثالثة تجريد المقام السابق من شهود التجريد. فإن السالك إذا أدرك مقام التجريد الثاني، شهد تجريده. وهذا الشهود مشعرٌ بالإثنينية وبقاء الإنيّة. فلا بد أن يتجرّد من هذا الشهود.

التفريد

قال الله تعالى: ﴿وَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [24: 25]

التفريد اسم لتخليص الإشارة إلى الحق، ثم بالحق، ثم عن الحق

فأما تفريد الإشارة إلى الحق، فعلى ثلاث درجات:

تفريد القصد عطشاً ثم تفريد المحبة تلفاً، ثم تفريد الشهود اتصالاً.

وأما تفريد الإشارة بالحق فعلى ثلاث درجات:

تفريد الإشارة بالافتخار بوحاً، وتفريد الإشارة بالسلوك مطالعة، وتفريد الإشارة بالقبض غيره.

وأما تفريد الإشارة عن الحق: فانبساط ببسط ظاهر، يتضمن قبضا خالصاً للهداية إلى الحق، والدعوة إليه.

تعليقات

لما كانت طريقة الشيخ في كل باب الإشارة إلى معناه المذكور في البدايات والأوساط والنهايات، لزمه في قسم النهايات الإشارة إلى صورة مقامات تلك النهايات فيما دونها.

فذكر صورة التفريد في مقام المريد أولاً، وهي تخليص الإشارة إلى الحق، أي تخصيصها في القصد والطلب بالحق، من غير تعلقها بشيء مما سواه.

فهذا التفريد يلزم المريد من ابتداء القصد إلى انتهاء السير إلى الله.

ثم بالحق، وهو من ابتداء السير في الله بعد الوصول إلى الحضرة الواحدية (مقام جمع الأسماء) إلى غاية الفناء في الذات.

ثم عن الحق، أي تخليص الإشارة حال البقاء بعد الفناء من أن لا يكون عن الحق. فلا تكون إشارته في الإرشاد والهداية والدعوة إلى الحق إلا عن الحق.

والتفريد الأول على ثلاث درجات:

أولها تفريد القصد تفريد العطشان إلى الماء فإنه لا يلوي إلى شيء سواه.

ثانيها تفريد المحبة تفريد الواله الذي لا يطلب سوى المحبوب.

ثالثها تفريد الشهود تفريد الاتصال، وهو تفريد شهود الحق عن ملاحظة الغير لحصول الاتصال (المذكور في بابه).

والتفريد الثاني على ثلاث درجات:

أولها: تخليص الإشارة بالحق بواسطة الافتخار به على كل الممكنات. وهو الفخر الذي يكون للوجوب والقدم على الإمكان والحدوث. فيبوح السالك بما خلعه الله من خلع الكرامة.

ثانيها: تخليص الإشارة إلى المطلوب بالسلوك اطلاعاً على حقيقته.

ثالثها: تخليصها بأن يقبضه الحق من نفسه عن العالمين غيرة عليه أن يعرفه الخلق فيفسدوا وقته ويشوشوه.

والتفريد الثالث يتطلب البسط مع الخلق رحمة عليهم، ويتضمن قبضاً باطناً يقبضه الله به إليه، فيكون ظاهراً مع الخلق باطناً مع الحق، يفعل ذلك البسط والقبض به فعلاً خالصاً لهداية الخلق إلى الحق ودعوتهم إليه، فينزل إلى مبالغ عقول الناس ويدعوهم إلى الله تعالى.

الجمع

قال الله تعالى: ﴿وَ ما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لكِنَّ اللَّهَ رَمى﴾ [8: 17]

الجمع ما أسقط التفرقة، وقطع الإشارة، وخرج عن الماء والطين بعد صحة التمكين والبراءة من التلوين، والخلاص من شهود الثنوية، والتنافي من إحساس الاعتلال، والتناقي من شهود شهودها.

وهو على ثلاث درجات:

جمع العلم وهو تلاشي علوم الشواهد في العلم اللدني صرفا.

جمع الوجود وهو تلاشي نهاية الاتصال في عين الوجود محقاً.

جمع العين وهو تلاشي كل ما تقلّه الإشارة في ذات الحق حقاً.

والجمع غاية مقامات السالكين، وهو طرف بحر التوحيد.

تعليقات

التفرقة والتفرق تنبع من الاحتجاب بالقيود والرسوم الخلقية عن الحق، فالبالغ مقام الجمع أو المجموع على الله هو الذي أسقط الرسوم وأزال مسمى السوى، ولم ير غير الله.

فالتفرقة هي اعتبار الفرق بين الوجود الحق والموجود المخلوق. وإسقاطها وجود الحق بلا خلق.

وقطع الإشارة عبارة عن زوال النسبة بين الإثنين، لأن الإشارة تقتضي المشير والمشار إليه. وفي حضرة الجمع لا إثنينية أصلاً.

ومن خرج عن الطين والماء، علا عن البشرية والإمكان وخرج عن حدود المكان. وذلك بشهود الحق في جميع الصور والمراتب. فلا يحتجب بالخلق عن الحق لفناء الرسوم الخلقية في شهوده، ولا يرى إلا الحق متجلياً في صور الأكوان. فلا يقع عند رؤية هذه المظاهر في التلوين، لأنه أدرك أن وجودها هو وجود الحق. فالتلوين إثبات السوى والتقابل وهو منه بريء.

فصاحب الجمع بعيد عن إحساس رسمه بعد فنائه، وقد اكتسى بكسوة الوجود الحق، فضلاً عن صفاته التي هي توابع الوجود. والاعتلال عبارة عن بقاء شيء من الرسوم والآثار.

وقد بالغ في النقاء عن شهود شهوده هذه الأشياء. فإنه إذا شهد أنه يشهد الخلاص من الثنوية والتنافي عن إحساس الاعتلال وصحة التمكين فقد بقي رسم شهوده (كأنه يقول أنا الشاهد نقائي). فالنقاء التام أن يرى بالحق شهود الحق إياها.

وجمع العلم يقتضي اضمحلال علوم الاستدلال وتلاشيها في علم الحق. وهو سقوط الحاجة إلى الشواهد في حضرة المكاشفة السرية من الحق للعبد. فهو لا يعلم إلا بعلم الحق، شاهد على هذه الحقيقة.

وأما جمع الوجود فهو زوال غاية الاتصال المذكور في الدرجة الثالثة من بابه بقوله "لا يدرك منه نعت، ولا مقدار، إلا اسم معار، ولمح إليه مشار". في عين الوجود المذكور في بابه بقوله: "وجود الحق وجود عين مقتطعاً عن مساغ الإشارة." والمحق هو الزوال التام واللاشيئية المحضة.

وجمع العين عبارة عن تفاني (وشدة فناء) كل ما تحمله الإشارة. أي شهود الأحدية الصرفة ذاتها بذاتها مع انتفاء الإشارات والاعتبارات. و فناء كل ما يشم منه رائحة التعدد الاعتباري في عين الأحديةعلى نحو الحقيقة.

فلا مقام أعلى من الجمع بالنسبة للسالكين إلى الله. ومن بعده يكون السير باللهالذي هو الترقي من الحضرة الواحدية إلى الأحدية.

التوحيد

قال الله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ [3/18]

التوحيد تنزيه الله عز وجل عن الحدث، وإنما نطق العلماء بما نطقوا به، وأشار المحققون بما أشاروا إليه في هذا الطريق: لقصد تصحيح التوحيد؛ وما سواه من حال أو مقام: فكله مصحوب العلل.

والتوحيد على ثلاثة وجوه:

الوجه الأول: توحيد العامة الذي يصح بالشواهد،

والوجه الثاني توحيد الخاصة وهو الذي يثبت بالحقائق،

والوجه الثالث توحيد قائم بالقدم وهو توحيد خاصة الخاصة.

فأما التوحيد الأول: فهو شهادة أن لا اله الا الله، وحده لا شريك له، الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد.

هذا هو التوحيد الظاهر الجلي، الذي نفى الشرك الأعظم، وعليه نصبت القبلة، وبه وجبت الذمة، وبه حقنت الدماء والأموال، وانفصلت دار الاسلام من دار الكفر، وصحت الملة للعامة وإن لم يقوموا بحق الاستدلال، بعد أن سلموا من الشبهة والحيرة والريبة بصدق شهادة صححها قبول القلب.

هذا توحيد العامة الذي يصح بالشواهد، والشواهد هي الرسالة والصنايع.

يجب بالسمع، ويوجد بتبصير الحق، وينمو على مشاهدة الشواهد.

واما التوحيد الثاني الذي يثبت بالحقائق فهو توحيد الخاصة، وهو اسقاط الأسباب الظاهرة، والصعود عن منازعات العقول، وعن التعلق بالشواهد، وهو أن لا تشهد في التوحيد دليلاً، ولا في التوكل سبباً، ولا للنجاة وسيلة.

فتكون مشاهدا سبق الحق بحكمه وعلمه ووضعه الأشياء مواضعها وتعليقه بأحايينها، وإخفائه إياها في رسومها، وتحقق معرفة العلل، وتسلك سبيل اسقاط الحدث.

هذا توحيد الخاصة الذي يصح في علم الفناء، ويصفو في علم الجمع، ويجذب الى توحيد ارباب الجمع.

وأما التوحيد الثالث: فهو توحيد اختصه الله لنفسه، واستحقه بقدره، وألاح منه لائحا الى اسرار طائفة من صفوته، وأخرسهم عن نعته، وأعجزهم عن بثه.

والذي يشار به اليه على ألسن المشيرين: انه اسقاط الحدث، وإثبات القِدم؛ على أن هذا الرمز في ذلك التوحيد علة، لا يصح ذلك التوحيد الا باسقاطه.

هذا قطب الاشارة اليه على ألسن علماء هذا الطريق، وإن زخرفوا له نعوتاً، وفصلوه فصولاً، فإن ذلك التوحيد تزيده العبارة خفاء، والصفة نفوراً، والبسط صعوبة.

والى هذا التوحيد شخص أهل الرياضة وارباب الأحوال، وله قصد أهل التعظيم، واياه عنى المتكلمون في عين الجمع، وعليه تصطلم الاشارات، ثم لم ينطق عنه لسان، ولم يُشر اليه عبارة، فإن التوحيد وراء ما يشير اليه مكوّن او يتعاطاه حين، او يقلّه سبب.

وقد أجبت في سالف الزمان سائلا سألني عن توحيد الصوفية بهذه القوافي الثلاث:

ما وحّد الواحد من واحد ... إذ كل من وحّده جاحد
توحيد من ينطق عن نعته ... عارية ابطلها الواحد
توحيده اياه توحيد ... ونعت من ينعته لا حد

تعليقات

أعلى التوحيد ما نطق به الحق تعالى وأظهره من نفسه. وحقيقته شهادة الألوهية على الوحدانية شهادة الظهور لا الكلام، وشهادة الحقيقة لا الاشارة.

والحدث صفة السوى والغيرية والخلق والكثرة.

والحكماء يدّعون تنزيه الله عن الحدوث بفكرهم وعقولهم، وهم بذلك مثبتون للحدث في عين نفيه. أما العارف فإن ما ينطق به محض الاشارة لا الدليل، أو قل ليس سوى تنبيه. فمن أراد إثبات التوحيد بنفي الحدوث علما، وقع فيما فر منه، لأنه فوق العقول والأوهام. وإثباته بالعقول يفيد نفيه.

وما ذكر من التوحيد عند الحكماء والعرفاء إنما كان من باب نفي التصورات والطرق التي تدّعي الوصول إلى التوحيد وهي في الواقع ضده. فإذا انسدت ابواب الأوهام كلها صح التوحيد وفتح بابه.

وأنت إذا تأملت فيما مر من الكتاب علمت أن كل ما ذكر فيه يروم مرام التوحيد ويدور حوله، وأن جميع الابواب التي فصّلت هي مظاهره المتجلية في قلب السالك أثناء سيره بحسب استعداداته ومقاماته. فالتوحيد في البدايات تفكر ويقظة وفي المعاملات هو الاخلاص والتفويض وفي الأخلاق شكر وحياء وفي الأودية إحسان وإلهام وهكذا.. أما التوحيد الخالص فإنه يتجلى بعد نهاية السفر والوصول إلى منتهى النهايات، ولهذا كان آخر باب من الكتاب مسمّى باسم التوحيد.

إن جميع المقامات بكل مراتبها هي محال ظهور التوحيد الذي يجذب بها الحق تعالى سالكي طريقه. بيد أن ظهور هذه المقامات بالتوحيد مصحوب بالعلل والآفات وذلك لبقاء الإنية ورؤية البقية، ونهاية السفر تكون بإسقاط السوى وفناء الكل.

ولكن للتوحيد أيضا بصورته النقية ثلاثة وجوه:

الاول ما يظهر عند العامة. وهو الذي يوصل إليه بالشواهد والأدلة. ولما كانوا محجوبين بالاسباب ورؤيتها والاعتماد عليها، كان طريقهم طريق الاسباب لخرق الحجاب.

وقبله توحيد ظاهري يحصل بالنطق بالشهادتين وبه تحقن الدماء وتستحل الفروج وهو الظاهر الذي عليه الناس؛ وهو الاسلام الأصغر. والتوحيد الذي يصح بالشواهد هو الإيمان الأصغر وهو الإيمان العقلي. ومثل هذا التوحيد يقوى وينمو من خلال زيادة الشواهد وكثرة التبصر والتفكر في الآيات.

وتوحيد الخاصة يكون بإسقاط الاسباب ونفي الشواهد، فإنه لا مؤثر في الوجود إلا الله ولا وجود إلا له.. فكيف يستدل عليه بما هو في وجوده مفتقر إليه، وهل لغيره من الظهور ما ليس له حتى يكون هو المظهر له؟!!

فبعد الترقي من توحيد العامة، يعطينا الدليل أنه لا يصح الاستدلال عليه، لأن المدلول عليه أقوى من الدليل، لا أنه خلاف الدليل.

فإذا كان كذلك، فكيف تكون الاسباب مؤثرة في جلب رضاه دونه؟ وكيف تكون الوسائل والعلل طريقا إلى النجاة بغير سببه؟!

فعندها تكون أنت مشاهدا أن الحق سبق بحكمه على الأشياء بما هي عليه في الأزل، فلا تكون إلا كما حكم به عليها؛ وكذلك سبق بعلمه وتقديره الاشياء على ما هي عليه. وتشاهد وضعه الأشياء مواضعها وتعليقه تعالى إياها بالأوقات والأزمنة، لا ان فعله سبحانه معلق على الوقت. فعند الله كل شيء قد تم وانتهى وما امرنا الا واحدة، ومن حكمته أن أخفاها في رسومها فكانت حجابا لذاته.

هذا معنى معرفة العلل وإسقاط الاسباب. فإن من رأى الاسباب كلها مظاهر السبب الأوحد نال توحيد الخاصة، ورأى سابقة حكم الأزل. فهو مع الحق في جريان الأحوال يشاهد تصريفه للأشياء بفعله على مقتضى حكمه وتقديره وعلمه وحكمته الأزلية.

وقيل أن هذا هو علم الفناء الذي لا يحصل إلا بالفناء في حضرة الصفات والأسماء، وإنما يصفو بعلم الجمع، وهو العلم بحضرة الأحدية.

وأما التوحيد الثالث فقد استأثره الله لنفسه، ليس لغيره منه نصيب. لأنه إنما

يتحقق بفناء الخلق كلهم وبقاء الحق وحده. فلا غير حتى تصدر منه إشارة ولا سوى حتى ينطق بالعبارة. واستحقاقه بكنهه له وحده لأنه كنهه. وإنما ألاح منه لائحة لصفوته من خلقه حال البقاء بعد الفناء في عين الجمع. وهم عارفون أن حضرة الأحدية لا نعت لها ولا صفة ولا اسم لها ولا رسم.

وإذا كان الحدث ساقطا والقدم ثابتا فما معنى أن نسقط الحدث ونثبت القدم؟!

فصار الاسقاط والإثبات علة وآفة في هذا الطريق. فلا يصح التوحيد هنا إلا بإسقاط هذه العلة. وبالرغم من أن التعريف المذكور والإشارة الحاصلة هي قطب الإشارات لكنها في هذا الباب علة.

فإلى هذا التوحيد كان سير السالكين ورياضتهم وعنده تنقطع الإشارات، فإنه وراء ما يمكن أن يشير إليه مخلوق. كيف لا وبقاء الخلق والرسوم لا يبقي توحيدا.

فما وحّد الحق تعالى أحد، لأن كل من أراد ذلك بنفسه جحده بإثبات الغير. ولا نطق في حضرة الأحدية إلا إذا كان النطق مستعارا منه تعالى. وعليه فيجب رد هذا النطق إليه حتى يصح النطق فيه. فهو الذي يثني على نفسه بنفسه على لسان أوليائه.

شكر وإهداء 5
مقدمة الناشر 7
تمهيد 9
من مقدمة الشيخ الانصاري 27
مرحلة البدايات 31
اليقظة 33
التوبة 36
المحاسبة 41
الإنابة 43
التفكر 45
التذكر 48
الاعتصام 50
الفرار 52
الرياضة 54
السماع 57
مرحلة الأبواب 59
الحزن 61
الخوف 63
الإشفاق 65
الخشوع 67
الإخبات 69
الزهد 71
الورع 73
التبتل 75
الرجاء 77
الرغبة 79

المعاملات 81
الرعاية 83
المراقبة 85
الحرمة 87
الإخلاص 89
التهذيب 91
الاستقامة 93
التوكل 95
التفويض 98
الثقة 100
التسليم 102
مرحلة الأخلاق 105
الصبر 107
والرضا 109
والشكر 112
والحياء 115
والصدق 117
والإيثار 119
والخلق 122
والتواضع 125
والفتوة 128
والانبساط 130
مرحلة الأصول 133
القصد 135
العزم 137
الإرادة 139
الأدب 141
اليقين 144
الأنس 146
الذكر 149

الفقر 152
الغنى 154
مقام المراد 157

قسم الأودية 159

الاحسان 161
العلم 164
الحكمة 166
البصيرة 168
الفراسة 170
التعظيم 172
الإلهام 174
السكينة 176
الطمأنينة 180
الهمة 182

قسم الأحوال 185

المحبة 187
الغيرة 192
الشوق 195
القلق 198
العطش 200
الوجد 202
الدهش 204
الهيمان 206
البرق 208
الذوق 210

قسم الولايات 213

اللحظ 215
الوقت 218
الصفاء 221
السرور 223

السر 225
النفس 227
الغربة 229
الغرق 232
الغيبة 234
التمكن 236

قسم الحقائق 239

المكاشفة 241
المشاهدة 243
المعاينة 246
الحياة 248
القبض 251
البسط 253
السكر 256
الصحو 258
الاتصال 260
الانفصال 262

قسم النهايات 265

المعرفة 267
الفناء 272
البقاء 275
التحقيق 277
التلبيس 279
الوجود 281
التجريد 283
التفريد 285
الجمع 288
التوحيد 291

مقامات السالكين

..فليعلم أن السير والسلوك ليس إلا الخروج من مطلق الاحتجاب والفرار من مراتب الظلمات إلى النور المطلق الذي أنار السموات والأرض، والقرب الأتم في مقام التدلي. وما على السالك في سيره من أسفل سافلين إلا استقبال هذا النور الذي يبدل وجوده الخلقي بالوجود الحقي ويجعل أخلاقه وصفاته صفات الحق وأخلاقه.

فبالنور الإلهي الساري في كل عوالم الوجود، من أعلى المراتب إلى أدناها، تتبدل الصفات الخلقية وتزول الرسوم الوهمية وتنقشع سحب الإمكان وتزول حجب الأهواء وقيود المكان. ..

مركز بهاء للدراسات
بيت الكاتب للطباعة والنشر